

الفصل الخامس

البوذا

قصة مولده :

خلال بضع سنوات من حياة «مهافيرا» ، ولد في سفح الهملايا ، على حدود أوذ Oudh ونيبال ، جوتاما بوذا Gotama Buddha ، الذى تركت حياته وشخصيته انطباعاً أكثر بقاءً على العالم الشرقى أكثر من أى شخص آخر . وكان «جوتاما بوذا» واحداً من كبار المجددين للفكر ، الذى ظلت تحيط بحياته الأسطورة والشعر حتى إنه ليبدو ، بعد مضي أكثر من ألفى سنة ، أنه كان أكثر من شخص فانٍ . ويبدو ، في الوقت نفسه ، أن هذه الشخصية السامية لم تقم بالوعظ والإرشاد فحسب ، بل وهبت ، ولم يسبقها في ذلك أحد من قبل تقريباً ، صفات لاشك أنها تبعث على التهكم بصورة معينة ، إن كنا ندعوها إنسانية : صفات الرقة والشفقة والتسامح والتواضع . وعلى شاكلة معظم الأناجيل الأخرى ذات العلاقة المقدسة ، كان مولده موضع أسطورة محكمة ، وفي اعتقادنا أسطورة معقدة بصورة لا داعى لها . وكما هي الحال مع كل الأنبياء ، كانت بعثته نتيجة ما هو مفروض أن يكون إلهاماً مقدساً ، وكان ينظر إليه تلاميذه ، على أنه فقط واحد من بين عدد من المفقذين الآخرين للبشرية ، أو البوذا . وأخيراً ومن هذه الوجهة كان هناك تشابه بينه وبين مهافيرا فقط في أنه بشرٌ بعقيدة لم يكن فيها - اسماً - مكان لإله . ومن الصعب أن نعلل أن يظهر على وجه الأرض شخص مثل «جوتاما بوذا» مثلاً يصعب تصور ما يمكن أن يملأ الفراغ التاريخي لو أنه ، بدلاً من هجره للعالم ، تقبل المنصب الرفيع الذى أعده له ميراثه .

كان «جوتاما بوذا» ، على شاكلة «مهافيرا» ، رجلاً ذا أصل رفيع ، كما كان أيضاً ، عضواً في طائفة كشاتريا Kshatriya ولكنه كان أكثر من ذلك ، فلقد كان أبوه «سوذودانا Sudhodana» ملكاً وحاكماً على مدينة كايلافاستو Kapilavastu - وهى مدينة على بعد مائة ميل شمال بنارس ، وكان فرداً من أفراد قبيلة اشتهرت باستقلالها وقوتها وهى قبيلة شاكيا Shakya . ومن العائلة الفريدة التى كان ينتمى إليها سوذودانا ، اشتهر ابنه سذارثا

Siddhartha ، الذى لقب بالبوذا فيما بعد ، أما عن التاريخ الدقيق لمولد الجوتاما فهو مثار خلاف ، وإن كان معظم العلماء يعتقدون اليوم أنه كان سنة ٥٦٣ ق . م . أما عن كيف كانت ولادته فهو موضوع كثير من الأساطير غير العادية .

وفى كتابتنا لحياة البوذا نجد أنه من المستحيل ، حتى لو كان هذا أمراً مرغوباً فيه ، حذف هذه الكثرة الأسطورية . وفى الوقت الذى نجد فيه أنه من الصعب تصور بوذى ورع ذى تربية معقولة يؤمن إيماناً صادقاً بقصة حمل أم البوذا بوليدها كما وردت فى أول كتب الـ «جاتاكا Jataka» فقد يكون من الحماقة أن نتجاهل من بين «قصص مولده» الكثيرة ما هو أبعد ما عن الصواب . وفى المقام الأول ، من الطريف جداً أن نلاحظ فى قصص قُصد بها أساساً عامة الشعب (مثل الأساطير المصرية) أى نوع من الحقيقة أو الخيال كان يظن أنه أقرب لإثارة الدهشة والرهبة العامة . وفى المقام الثانى ، من المهم إدراك أن مثل هذه القصص التى تتميز كل عقيدة عالمية ، كان المقصود بها أن تقبل فى حالة ليست أقرب إلى التسليم بها منها للتصديق المؤجل وعدم التصديق . والقول بأن هذه الأساطير ترتفع ببساطة إلى مستوى الشعر لا يوحى لذلك بأنها زائفة ، فهى ليست أكثر زيفاً من عبارات الإطناب التى يتفوه بها الحب لخليلته . وفى موقف من هذا النوع ، يكون كلا الطرفين فى تأمر لاعتبار أن مثل هذه العبارات وسيلة للتعبير عن ذلك الذى قد يظل بصورة مختلفة غير مقال أو لا يمكن قوله . ونحن نبالغ فى المستوى العقلى للجنس البشرى ، تماماً كتجاوزنا بلا شك فى تقديرنا لكفاءة العقل إذا افترضنا أن العقيدة يمكن أن تدعم فقط على أساس من الواقع . وفى دعوة الشخص العادى إلى الإيمان بما هو فوق الطبيعة ، ينبغى على زعماء العقيدة أن يعودوه على الأفكار التى تكون فيها الطبيعة عرضة للتأجيل المستمر . وإذا كان الفن والشعر هما دين الطبيعة فإن الدين هو شعر ما فوق الطبيعة .

وبعد مولد البوذا بنحو سبعمائة سنة ، دونت لأول مرة الأساطير المختلفة التى تناولت حمل أمه به ومولده . ونحاط علماً فى مقدمة كتب «جاتاكا» أن التاريخ مقسم إلى مراحل كبرى ثلاث تفصل الواحدة منها عن الأخرى بمدد زمنية متفاوتة ، وتجديد الدورة الزمنية تنبئ عنه حادثة يمكن أن ترجم خبير ترجمة بعارة اضطراب أو حرفياً «صخب» Uproar . وأولى هذه الاضطرابات التى حدثت بعد أن صار للعالم وجود لمدة مائة ألف سنة ، أدت إلى التدمير الكامل للعالم بفعل نيران الأرض «تدميراً بلغ مداه سموات البراهما» وثالث وآخر اضطراب ،

قد يكون قيام الملكية العالمية على الأرض ، وبين هذه الاضطرابات التاريخية الكبرى والتي حدثت نحو ألف سنة بعد الطوفان الذي عجل به الاضطراب الأول ، كان الحدث الحقيقي الرئيسي للتاريخ ، أعني مولد المنقذ العليم بكل الأمور أو البوذا «المبارك Blessed» أو «المتنور Enlightened One» الذي كانت رسالته هي خلاص العالم .

عندما حان الوقت للملائكة العالم الحراس أن يعلنوا عن «مولد البوذا» نحاط علماً بأنه اجتمع «آلهة كافة عشرة الآلاف عالم ، معاً ، في مكان واحد» ، ولما استقر رأيهم على من سيكون البوذا ، أعلنوا اسمه على الملأ . وبعد إعلان الظروف التي افترض أنه ولد فيها ، وإعلام الآلهة بخليفته ميتريا Maitreya ، مات البوذا على هذا الأساس ، وكان قد حُمل به على الأرض في رحم الملكة «ماها-مايا Maha-Maya» كبرى زوجتى سوزودانا . ثم يدخل التسلسل التاريخي بعد ذلك في التفاصيل التالية : «في تلك الأثناء عُقد احتفال منتصف الصيف في مدينة «كايلا فاستو» ، وتمتع الكثيرون بالعيد ، وشاركت فيه الملكة «ماها-مايا» ، وامتنعت عن تناول المشروبات الروحية القوية ، وكانت مشرقة الطلعة بما كانت تضعه من أكاليل الغار وما كانت تتضوع به من روائح خلال الاحتفالات التي دامت لسته أيام سابقة ليوم قر التمام . وعندما جاء قر التمام ، استيقظت مبكرة واستحمت في ماء معطر ووزعت أربعائة ألف قطعة نقدية في سخاء عريض ، وتزيت في زى كامل للاحتفال وأكلت أشهى طعام ، وبعد ذلك أخذت على نفسها العهود الثمانية ، ودخلت غرفتها الملكية المؤثثة أرق تأنيث . وبينما كانت ترقد على المتكأ الملكي ، استغرقت في النوم وحلمت بالحلم التالي : جاء أربعة ملائكة من الحراس ، ورفعوها وهى على متكئها وذهبوا بها بعيداً إلى جبال الهملايا ، وهناك في سهل «مانوسيللا Manosila» المرتفع . . . أرقدوها تحت شجرة موالح ضخمة ، ارتفاعها سبعة فراسخ . ووقفوا في احترام في جانب واحد . . . ولم يكن بعيداً عنها تل الفضة . وكانت مقامة فوقه دار مذهبة . مدوا فيها متكأ مقدساً رأسه تجاه الشرق وأرقدوها عليه ، ثم اتخذ البوذا المنتظر صورة فيل أبيض رائع المنظر . وأخذ يتجول في مسافة ليست بعيدة ، على تل الذهب . وبعد هبوطه هذا التل ، صعد تل الفضة ، وفي اقترابه من جهة الشمال قطف زهرة لوتس بيضاء بنحوظه الفضى ، وفي دقه دقاً مدوياً توجه إلى الدار المذهبة ولف حول متكأ أمه ثلاث مرات وجنبه الأيمن تجاه المتكأ ، ضارباً إياها على جنبها الأيمن ، وبدا يدخل رحمها ، وهكذا حدث الحمل في الاحتفال بمنتصف الصيف» .

وطبقاً لرواية القصة ، لم تستيقظ الملكة حتى اليوم التالى ، عندما سردت على الفور حلمها على الملك الذى كان همه بطبيعة الحال أن يكتشف مغزاه ، وعليه ، فقد دعا إلى اجتماع ضم أربعاً وستين من أعلم علماء البراهمانيين فى مملكته ، وبعد أن متعهم فى حفل فخم وقدم لهم الهدايا الثمينة ، قص عليهم حلم الملكة ، وطلب منهم تفسيره . وبعد التروى المناسب وصل البراهمانيون إلى نتيجة إجماعية إذ قالوا له : « لا تقلق أيها الملك العظيم . لقد تكوّن جنين فى أحشاء ملكتك ، وهو جنين ذكر وليس أنثى ، سيكون ابناً لك ولو كتب له أن يجيا الحياة الملكية ، فسيصبح حاكماً عالمياً ، ولكن لو أنه ترك الحياة الملكية واعتزل العالم فسيصبح بوذا ولطوى سحب خطيئة وحاقة هذا العالم » .

وعلى الفور صار معروفاً فى السماء أنه حُمِل ببوذا على الأرض ، فحدث هرج ضخم ، وقد أحصيت اثنتان وثلاثون ظاهرة ودلالة ، وغمر عشرة الآلاف عالم إشعاع لم يشاهد قط من قبل ، وشفى العجزة والمرضى فجأة ، وخدمت النيران فى كل جحيم فى الكون وصهلت الخيول وطبلت الفيلة بأسلوب عذب على الأذن وعزفت الآلات الموسيقية بدون عازف ، أنغاماً سماوية . واستحال ماء المحيط عذباً . واستطالت زهور اللوتس ، وما إلى ذلك . وبالرغم من أن الملكة كانت فى الخامسة والأربعين من عمرها ، فقد مرت فترة الحمل بصورة تبعث على الرضا التام ، وهى لم تحس بأنها فى صحة جيدة بصورة غير عادية فحسب ، بل ظلت دائماً على علم بوجود البوذا المنتظر فى أحشائها ، « كخيط أبيض من خلال حجر كريم شفاف » . وعندما اقترب موعد الولادة ، استبدت بها رغبة قوية هى أن الطفل ينبغى أن يولد فى بيت أسرته فى مدينة ديفادادا Devadada . ولما كان يهم الملك أن يحقق كل رغبة من رغباتها ، فقد أصدر أمره بأن يشيد لها طريق عمومى خاص تمر به ، وحُمِلت على محفة فاخرة ، وكانت معها مؤلفة من ألف من رجال البلاط ووصلت فى الوقت المحدد إلى نقطة فى الطريق تسمى غابة لامبيني Lumbini Grove ، خارج بوابات المدينة تماماً . وإذا المشهد ، الذى كان غاية فى الجلال - إذ كانت « الغابة الصغيرة كتلة من الأزهار تمتد من الأرض حتى أقصى قمة الفروع » - قد أسرها وأخذ بلها . فأعربت عن رغبتها فى التخلف هناك . وفى تجوؤها خلال جبال الغابات ، اقتربت من شجرة موالح ضخمة فى وسط الغابة ، ولما مدت يدها تجاهها مال نحوها غصن من الأغصان ، ولدهشتها ، ما أن لمستها حتى بدأت تحس بالآلام الوضع ، ومن ثم ، فقد حدث أنه بينما كانت تمسك بغصن شجرة الموالح ولدت البوذا الصغير

«وكان وضاءً في نقائه وصفاته كحجر كريم قُذِفَ به على رداء صنع من قماش بنارس Benares»، لأنه بينما كان يخرج من رحم أمه هبط في الوقت نفسه أربعة ملائكة من السماء، فتلقوه على شبكة ذهبية في حين قامت نافورتا مياه من السماء بمراسيم استحمامه. ويصوّر هذا المشهد دائماً وبصورة متكررة في الفن البوذي. أما عن الملكة نفسها، فقد توفيت في اليوم السابع من ولادة ابنها «لأن الرحم الذى حمل البوذا يعد بمثابة حرم ولا يمكن شغله أو استخدامه مرة أخرى»، ولذا فقد قامت بتربية الصبي خالته: مايا براجاباتي

Maya-Prajapati

ولقد رُوى أن البوذا الصغير عندما ولد اتجه بنظره إلى الشرق واستعرض الكون كله كما لو كان منبسطاً أمامه أشبه بـ «ساحة ضخمة مكشوفة». وعلى شاكلة زارادشت الصغير، وجه أنظاره في دقة ورزانة، إلى كل اتجاه لغرض يبدو أنه كان يريد أن يتأكد هل كان هناك أى فرد في العالم يمكن أن يكون صنوآله، ولما لم يجد منافساً له، حطت سابع خطوات واسعة وأعلن عن نفسه في صوت نبيل إنه إله الخلق. هذا الطفل يمكن أن تقارن صحبته، «صبيحة النصر» بالضحكة الصاخبة التي صدرت عن زارادشت عند ولادته. وتحيطنا الكتب المقدسة علماء عند هذه النقطة أنه في نفس الوقت الذى ولد فيه البوذا جاءت إلى الوجود شجرة التين الشهيرة التي كان عليها أن تقوم بدور هام جداً في حياة البوذا.

العلامات الأربع :

رحبت الآلهة والناس بولادة البوذا ترحيباً بحمل أمه له، على أنه حدث لا مثيل له في التاريخ: فتفتحت جوقة سماوية، أشبه بتلك التي حيت مولد المسيح، بمدائح الطفل الصغير. ويسجل التراث البوذي بالمثل، حادثة ماثلة تماماً لتلك الزيارة التي قام بها الحكماء الثلاثة إلى بيت لحم. لقد اعتاد رجل قديمي المظهر يدعى كلابديفالا Kaladivala، وكان معروفاً حتى المعرفة للملك سودودانا، اعتاد بعد وجبته اليومية أن يستغرق في فترة من التأمل العميق. وفي اليوم الذى ولد فيه البوذا، لاحظ أن الآلهة التي كان علي صلة بها، في حالة غير عادية من البهجة. وبعد تحريره عن السبب، علم أن طريقهم إنما مرده إلى حقيقة أن ابناً قد ولد للملك سودودانا وأنه سيجلس تحت شجرة التين ويصير بوذا وسيكون سبباً في نشر مبدأ ديني. وعند تلقيه هذه المعلومة، هرع «كلاديفالا» الذى كان بمثابة «سيمون البوذية

«Simeon of Buddhism» ، إلى القصر الملكي وطلب رؤية الطفل . وفي سروره وامتناله لهذا المطلب ، أمر الملك بأن يرتدى الأمير الصغير أحسن ملابسه وأن يأتوا به . لقد بدا من الملامح أن من الواجب أن يعود الطفل على أن يقدم تبجيله إلى مثل هذا الرجل القديس ؛ ولكن لم يحدث هذا ، إذ لم يكد يُحمل البوذا إلى كلابديفالا حتى غرس قدميه بثبات بين خصلات شعر الناسك المبجل الملبدة ، موضحاً بهذا أنه ليس هناك من أحد على ظهر البسيطة على استعداد لأن يؤدي له فروض الطاعة . وأدرك كلابديفالا أنه كان في حضرة مخلوق قديس . ولما لاحظ علامات معينة مقدسة على جسد الطفل مثل «عجلة القانون» على قدميه ، أسرع الرجل العجوز وانحنى احتراماً ، فدهش الملك ، إذ لم يشهد قط من قلب قواعد السلوك مثل ذلك القلب الذي يقدم فيه رجل قديس فروض الطاعة والولاء إلى طفل حديث الولادة . ولكن عينيه تفتحتا الآن وأسرع ليحذو حذو كلابديفالا .

عندئذ تذكر الملك نبوءة البراهمانيين الذين كان قد استشارهم بالنسبة لحلم الملكة ، لقد سأل كلابديفالا كيف يمكن التحقق مما إذا كان الطفل سيصير حاكماً عالمياً أم بوذاً ؟ فرداً على ذلك أعلن كلابديفالا أن مصير الطفل في المستقبل ستحدده أربع علامات : لوكتب للطفل أن يرى في الوقت المناسب رجلاً عجوزاً هرمياً ، ورجلاً مريضاً ، ورجلاً ميتاً وآخر راهباً ، ففي هذه الحالة سيصير بوذا بكل تأكيد . وفكر الملك . لقد قرريته وبين نفسه أنه بدلاً من أن يعتزل ابنه العالم ينبغي أن يصير حاكماً لمملكة عظيمة . لقد كان لديه إحساس بأن هذا الأمير الصغير مقدر له أن يحكم العالم . وبناء على ذلك - ولكي يؤكد أنه يجب ألا يحبط ما رسمه - أمر الملك بوجود وضع حراس في كل اتجاه ، مزودين بتعليمات مشددة بألا يسمحوا بدخول أى زائر مشكوك في أمره ، خاصة بالنسبة للفئات الأربع من الرجال الذين تحدث عنهم كلابديفالا .

عاش الأمير لبضع سنوات عيشة سعيدة ، حياة استهتار في القصر الملكي . ولقد بدا أن الاحتياطات الدقيقة التي اتخذها أبوه كانت لها فعاليتها . ولم يكن هناك من شيء ينقص الصبي ، ولم تكن هناك من متعة في حياته الشابة تنقصه ، ولم تكن هناك سحابة حزن لتغيم على حياة كادت أن تكون بهيجة ، حتى حدث أن لاحظ الأمير ، كما تسجل الأسطورة - وكان لا يزال تلميذاً - لاحظ منظر العمال الذين كانوا يعملون في الحقول كادحين ، منظرًا يصور الكدح البشري ، كما هز مشاعره تحطيم حياة الحشرات بسبب قلب التربة . وفي التاسعة

عشرة تقرر أن يتزوج الأمير ، وكان اختيار عروس لملك هذا الأمير أمراً ذا أهمية كبيرة ، ولكن تمشيا مع ما نشئ عليه منح فرصة لإصدار حكمه الشخصى . ولقد اختار من بين خمسة آلاف شابة آية في الجمال ، اختار واحدة تبين أنها ابنة خالته الأميرة الفاتنة جوبالGopala. وخوفاً من أن أميراً قد اعتاد على الرفاهية ، قد تعوزه الرجولة المنتظرة في زوج حاز قبول عروسه له ، دعاه والد جوبال ليعقد له اختبارات معينة في القوة والرجولة ، اجتازها دون أية صعوبة ، وبرهن الزواج على أنه زوج سعيد جداً . تنفس الملك سودودانا تنفساً يئم عن راحة البال . لقد بدا أنه بهذا الرباط الجديد الثابت ، والذي كان يلحق به عدد من المحظيات ، قد ضمن للأمير حياة دنيوية في المستقبل ورفاهية مقبلة . ولم تكن العلامات المخيفة قد ظهرت بعد ؛ وكانت الدلالات ، كما كان حالها ، تشير إلى مستقبل أكثر سعادة .

وذات يوم قرر الأمير أن يقوم برحلة خلال ربوع المملكة الشاسعة ، وكانت هذه هي اللحظة التي كانت تترقبها الآلهة ، لأنهم كانوا قد قرروا أنه يجب أن يبدأ من الآن تنور الأمير . فتخفى أحد الآلهة في صورة رجل عجوز مشلول يهتز جسده ، ووقف على طول الطريق الذي كان من المقرر أن يمر به الأمير ومعه تشونا Chauna ، سائق مركبته الحربية . ولم يكذ الأمير يلمح هذه الشخصية الغريبة الباعثة على الشفقة حتى تأثر بهذا المشهد تأثراً يفوق الحد ، إذ لم يشهد قط في حياته الشابة مثل هذا المشهد . أما تشونا ، الذي شاهد أيضاً هذا المشهد ، فقد فسر له طبيعة كبر السن والهرم . ولأول مرة خبر الأمير إحساساً بالنفور الشديد من الحياة البشرية ، وبالميلاد بصورة خاصة ، الذي لا بد أن تُعزى إليه مثل هذه النتيجة المروعة . وفي انصرافه عن كل تفكير في مزيد من المباهج في ذلك اليوم ، عاد مسرعاً إلى قصره . أما الملك . الذي كان في دهشة من عودة الأمير المبكرة ، فقد تحمى الأمر من سائق مركبة الأمير . وعند سماعه أن الأمير قد قابله رجل عجوز هرم . انتابه إحساس خليط من الخوف والغضب : عاطفتان زادت حدتها عندما علم إلى أى عمق من اليأس كان تأثر الأمير . وعلى الفور ، صدرت الأوامر بوجوب تعزيز الحرس الموجود حول القصر ، وبتخاذ كل إجراء لمنع أى مشهد يمكن أن يجعل الأمير ينغمس في أفكار سوداوية . ولكن لسوء الحظ ، بالرغم من أن الملك كان يحيط ابنه بأكبر رعاية ، وكان في قلق دائم عليه ، فإنه ما إن ظهرت أول علامة منذرة بالسوء حتى أعقبها في الوقت المناسب العلامات الثلاث الأخرى . باختصار ، لقد التقى الأمير وسائق مركبته الحربية ، التقيا على التوالي برجل حطمه المرض ، ثم بجثة وأخيراً التقى

براهب . وفي كل مناسبة كان « تشونا » مضطراً لأن يفسر لسيدة الشاب طبيعة ومعنى المرض والموت وأهم من ذلك كله ، إنكار الذات Renunciation . ورغم دراية سائق مركبة الأمير الحربية ، بالاثنتين الأولين ، فهو لم يكن يعلم شيئاً عن حياة الرهبان ، لأن مثل هذا اللون من الحياة عليه أن يستمد معناه من مهمة بوذا المنتظر . ورغم ذلك فإن الآلهة ، الذين اتخذوا صور الأشخاص الأربعة المعنية ، أفهموها لعقل تشونا ليحيط علم الأمير بالمعنى الحقيقي لاعتزال العالم فضلاً عن التوصية بأنها حياة مقدره أعظم تقدير .

وفي حيرته ، يل أكاد أقول في يأسه ، لم يكن في استطاعة الملك أن يفكر في شيء سوى كيف يمكن استئناف التحايل على الأمير بالمسرات واللهو والمباهج الأخرى . لقد أدرك مؤخراً جداً أن مثل هذه الحيل تساعد فقط على إذكاء عدم رضاه الشاب ، ودنو عالم الألم والمرض والموت قد حول أفكاره تماماً عن المباهج بوجه عام . لقد صارت سعادته الماضية بل حتى سعادته الراهنة ، صارت فجأة بلا معنى ، وتدرجياً بدأ الانجذاب إلى لون مختلف من الحياة يؤكد نفسه : حياة ليست حياة ارتباط بالأشياء والناس ، بل حياة عزلة وتأمل ، قد يصبح فيها المعنى الحقيقي للوجود أكثر وضوحاً .

الاعتكاف العظيم :

وما لبثت أن حلت الكارثة بعد ولادة طفله الأول . ولما كان مخلصاً أيماً إخلاصاً لزوجته ، فلقد دفعته ولادة ابنها ، إلى أفكار مريرة ، وكان تعليقه الوحيد عند أول سماعه بالنبا الذي ملأ الملكة كلها فرحاً وسعادة ، هو أن قال : « لقد وُلد عاتق ، لقد وُلد قيد » . أما الملك ، الذي كان يعلق أهمية كبيرة على كل ما كان يتفوه به ابنه ، فقد فكر ملياً في هذه الملاحظة ، ثم أعلن قائلاً : « فليسمّ حفيدي راهولا Rahula (العائق) » قالها وهو في حالة نفسية جمعت بين المزاج والتفكير ، وهكذا سمي الطفل . ورغم ذلك ، فقد أقيمت احتفالات في المدينة ، ليس فقط للترحيب بمولد الطفل ، بل أيضاً للمناداة بأبيه أسعد البشر . مثل هذا المرح اليسير لم ينجم عنه فقط إلا زيادة انقباض قلب الأمير : فلقد كان مشهد فرقة الراقصات وهن يفترشن الأرض يملؤه على الفور بالاشمئزاز . ولما ضاق ذرعاً بمثل هذه الإغراءات الماجنة ، استغرق في النوم في أثناء أداؤها ، ثم استيقظ بشعور شخص سمع بأن داره قد شبت فيها حريق . لقد أدرك أنه حان الوقت للقيام بما أسماه « الاعتكاف العظيم » .

أما عن توديع الأمير الصامت لأسرته ، فلقد حوت الـ «جاناكا» تسجيلاً بسيطاً ومؤثراً .
ويمكننا أن نذكر تمام الإدراك كيف أن هذه الحادثة وغيرها من الحوادث في حياة البوذا قد
جاءت لتحل لنفسها مكاناً مقدساً يستحق الذكر في أذهان البوذيين التقليديين مثلما احتلت
قصة الإنجيل في أذهان المسيحيين. وليس هناك في الكتاب المقدس الهندوسي ، اللهم إلا بضع
أحداث هامة في الـ «بهاجا فاد - جيتا» ، من مجال للمقارنة فيما يتصل بصراحتها وكياسة
التعبير. وحتى لو تجاوزنا عن الاختلافات في الهدف لتبين لنا أن الوداع الشهير لـ «ياجانا فالكيا»
و«ميتريي» الوارد في اليوانيشادات يلفت نظر القارئ إلى التناقض بينه وبين وداع البوذا ،
إذ إن أولها عقلى بصورة غير معقولة ، في حين أن ثانيها شكلى بصورة غير معقولة : ولقد
سجلت «الجاناكا» ما يلي : «والآن بعد أن بعث البوذا المنتظر بـ«تشنا» في مهمة (ليضع
السرّج على جواده «كانثاكاKanthaka» قال لنفسه : «سألني مجرد نظرة واحدة على ابني»
ونفض من المتكأ الذي كان جالساً عليه وتوجه إلى جناح الغرف التي تقيم فيها أم راهولا ، وفتح
باب غرفتها ، وكان في داخل الغرفة مصباح يحترق ، مضاء بزيت له رائحة حلوة ، وكانت أم
راهولا نائمة على سرير قد نُثِرَ كَلِّه بالياسمين وبغيره من الأزهار وكانت يدها مستقرة على رأس
ابنها ، فلما اقترب البوذا المنتظر من مدخل الباب توقف وحملق في الاثنين من المكان الذي
وقف فيه وقال : «لو رفعتُ يد زوجتي من على رأس الطفل وحملته ، ربما أستيقظت ومن ثم
تعوق رحيلي . سأنتظر حتى أصير بوذا ثم أعود لأرى ابني» ، وبعد قوله هذا هبط من القصر .
وبعد أن ركب جواده الضخم السريع ، كانثاكا ، وبعد أن أصدر أوامره إلى «تشنا»
بأن يتعلق بذيل الجواد ، غادر الأمير المدينة ، وللإقلال من جلبة ركض الجواد ومن صوت
صهيله اتخذت الآلهة إجراءات خاصة ، «إذ أن كل خطوة كان يخطوها كانوا يضعون راحات
أيديهم تحت أقدامه» ، وعند بلوغ بوابة المدينة ظهر عائق كبير ، ذلك أن البوابات التي كانت
قد شيدت خصيصاً لمنع الأمير من أن يغادر المدينة دون علم أبيه كانت تحتاج إلى ألف رجل
لتحريكها ، وتذكر لنا رواية الكتاب المقدس الهندوسي أن البوذا المنتظر ، لما كانت العناية
الإلهية قد منحتة «قوة لو حسبت بقوة الأفيال لعادلت عشرة آلاف مليون فيل» ، فلقد كان في
استطاعته دون أدنى صعوبة أن يفتح ضُلف البوابات الضخمة أو أن يجعل نفسه وجواده
وسائق مركبته الأمين ، كلهم جميعاً ، فوق البوابات . ولقد ثبت أن هذا العمل لا داعي له ،
لأن الإله المقيم بالبوابات لما أدرك أن البوذا المنتظر يريد مغادرة المدينة ، فتح البوابات الكبيرة

ليمكنه من المرور. ولم يكد الأمير يقتحم الخلاء المكشوف حتى واجهته تجربة جسيمة ، ذلك أن أمير الظلمة ، مارا^(١) Mara ، وقد اتخذ صورة شخص مرئى ، أحاطه علماً بأنه في خلال سبعة أيام من المقرر أن يصبح الحاكم العظيم الذى تحدث عنه البراهمانيون ، فلو أراد أن يصرف النظر عن كل هدف للسعى وراء التثور في الغابة ، لكان لزاماً عليه أن يقفل راجعاً ، ويعد العدة ليحكم إمبراطوريته ، ولكن الأمير استخف بمثل هذه النصيحة ، وأعلن أنه لم يكن يطمع في أية سيادة دنيوية وقال : «إبنى على وشك أن أكون سيباً في أن أجعل عشرة الآلاف عوالم تلهج بذكرى عندما أصير بوذا» ، ولكن هذا القول لم يثن «مارا» فقال مهدداً : «سأمسك بتلابيك منذ أول مرة يصبح فيها تفكيرك شهوانياً ، خبيثاً أو قاسياً» . وعلى ذلك تعقب «مارا» الأمير الشاب كظله في جولاته ، ولم يفقد الأمل على الإطلاق في أن يثنيه عن الرسالة المقدسة التي كرس نفسه لها . ومن ثم ، فقد لقي البوذا في مسهل عمله كمنقذ للبشرية ، وقد سبقه في ذلك زارادشت والمسيح ، لقي هجوماً من قوى الشر لم تكن تهدف كثيراً إلى تحطيمه بقدر ما كانت تهدف إلى إفساده ، وفي كل حالة كان الطعم المقدم طعماً ذا قوة وقتية .

وعند ما بلغ الأمير الغابة التي اعتكف فيها عدد كبير من الأشخاص القديسين والمتقشفين ، صرف سائق مركبته الأمين بعد أن أهدي إليه الخلى والملابس الثمينة التي لم يعد في حاجة إليها . وبعد ذلك قام إله متخف في زى ناسك ، بتزويد الأمير الشاب بملابس بالية خليقة بشحاذ . وقد أعرب «تشونا» أيضاً عن رغبته في اعتزال العالم ، ولكن سيده أصر على أن هذا العمل لم يكن نداء موجهاً إليه (أى إلى تشونا) . ثم طلب «جوتاما» من حكماء الغابة - نظراً لجهله بأساليب حياتهم - أن يجبطوه علماً بمختلف الأساليب التي يمكنه بها اكتساب الحكمة والقدسية ، وكان قد سبق له أن استمع إلى قصص غامضة عن نظامهم الصارم : كيف أن بعضهم عاش على بضع حبات من القمح ، وبعضهم على الكلاً ، ومازال بعضهم ، مثل الثعابين ، يطيرون في الهواء^(٢) . وبالاستسلام لمختلف درجات الألم ، كان يعتقد النساك في أنفسهم أنهم اقتربوا من بلوغ الكمال الخلقى . لقد أعلنوا أن «الألم هو أصل الموهبة» . هذا الموقف تجاه الحياة والمعاناة ، برغم تأثيره على البوذا المنتظر ، قد فشل في إرضائه . لقد رأى في

(١) جدير بالذكر أن الكلمة الإنجليزية Night-Mare (ومعناها الكابوس) مشتقة من هذا الاسم .

(٢) خرافة قديمة .

مثل هذا النضال وراء المهوبة دافعاً قوياً للترابط ، أملاً كامناً في الولادة للمرة الثانية ، وتعلقاً حاذقاً بالحياة ، في حين أنه منذ أول نظرة ألقاها على الرجل المسن والمشلول والمتوفى ، ترعرع عنده الاعتقاد بأن الميلاد في ذاته شر ، وأنه شيء يجب أن يوضع له حد ؛ والعمل يولد الحياة . وبرغم اقترابهم من التمسك بآخر خيط حيوى ، فإن هؤلاء النسك المتقشفين لا يزالون رجال عمل ، إذ يبدو أن طريق التقشف طريق لا يؤدي إلى الـ «نيرفاناNirvana» ، بل يرجع بالمرء مرة أخرى إلى عالم الخيال والولادة للمرة الثانية .

وبعد تبادل عبارات التقدير المنطوية على الجمالة من الجانبين ، غادر «جوتاما» في هدوء الحكيم «آراته Arata» ومن في صحبته من النسك المتقشفين ، واستأنف جولاته مرة أخرى . وفي الوقت نفسه ، عندما قفل «تشونا» راجعاً إلى داره مع كانشالا ، كان نبأ رحيل «جوتاما» من أجل الاعتكاف العظيم قد انتشر بسرعة بين رجال البلاط . وكان أكثر الجميع رفضاً لتقبل العزاء زوجة الأمير الشاب ، التي أعادت إلى الأذهان نفس السلوك المتباين للساعين السابقين وراء الحقيقة . لقد أعلنت أنه «إذا كان يرغب في ممارسة حياة دينية بعد تركه لي ، وأنا زوجته الشرعية ، كأرملة - فأى ديانة هي ديانته هو الذى يرغب في أن يتبع طريقها دون أن تشاركه فيها زوجته الشرعية ؟ لعله لم يسمع ، بكل تأكيد ، عن نسك الأزمنة القديمة ، لعله لم يسمع عن جده هو نفسه ماهاسودارسا Mahasudarsa والبقية - كيف أنهم ذهبوا في رفقة زوجاتهم إلى الغابة - لكى يريد هو إذن أن يمارس حياة دينية بدونى . . . لا بد أن هذا المنهج المولع بالدين ، لا بد أنه يعرف ، بكل تأكيد ، أن ذهنى في صراع خفى حتى مع محبوبى ، فتركنى في استخفاف وبلا جزع ، وتركنى على هذه الصورة مما أثار غضبى ، على أمل أن يجد حوريات سماويات في عالم إنديرا Indra» . ثم انتقلت أفكارها بعد ذلك وعلى الفور إلى طفلها الصغير ، راهولا ، وقد بدا كما لو كان مولاهما قد اقرن إساءة مزدوجة في هجره إذن لكل من الأم والابن .

وعندما وصل البوذا إلى مكان غاية في الجمال يدعى يوروفيللا Uruvela، على بعد خمسين ميلاً تقريباً من باتناتا Patnata، قرر البوذا المنتظر أن يستأنف تأملاته . ولكى يجرد ذهنه من الأفكار المحيرة ، عزم على أن يبدأ صوماً منتظماً غاية في الصرامة والشدة . لقد حاول تجربة العيش على فواكه الجوجوب Jubjube أو على بضع حبات من السمسم والأرز ، مقلداً بانتظام من طعامه اليومي حتى حصره في حبة واحدة ، فارتحنى لحمه ، وذبل وكاد يلتصق

جلده بعظمه . لقد اعترف فيما بعد بقوله : « كان الأثر الذى يتركه جلومى يشبه أثر خف الجمل ، من جراء قلة الطعام ، وكانت عظام عمودى الفقرى عند المنحأى واستقامتى أشبه بصف من المحاور من قلة الطعام . وكما يحدث فى بئر عميقة ، يرمى الماء القليل العمق برآقاً ، فكذلك كان حال حجاج عيى ففيها كان يرى بريق عيى القليل العمق من قلة الطعام . وتاماً مثلما أن القرع إذا ما قطع فجأة يتشقق ويذبل من أثر المطر والشمس فكذلك خف جلدى من أثر قلة الطعام . وعندما ظننتُ أن بمقدورى أن ألمس جلد معدنى ، وجدتنى أمسك بالفعل بعمودى الفقرى » . وحتى لا يتهم أحد بأنه فشل فى ممارسة القمع الذاتى للشهوات بصورة جدية ، اتبع هذه الأساليب التشفية إلى درجة لا ينقصها إلا الانتحار .

وهكذا عاش «جوتاما» عيشة ينذر أن تكون فوق مستوى الوجود ، مدة بلغت ست سنوات سعيًا وراء الوصول إلى القداسة عن طريق الانغماس فى إنكار الذات . وأخيراً ، لقد كان برغم مآثره فى التركيز الذهني ، يتبع برنامجاً أفضل قليلاً من البرنامج الذى يتبعه المتشفون الذين كان يعبرهم عن استخفافه بهم . إن نفس انغماسه فى تجربة إنكار الذات لم يكن شيئاً سوى صورة من صور الانغماس فى النفس . وفضلاً عن هذا ، فإن احتدام جهوده فى قمع الشهوات ، وهو أبعد من أن يكون دافعاً لحالة نفسية من الهدوء ، قد يولد تقلباً وانفعالاً . وطوال استمراره فى العبث بالحياة أو مداعبته الموت باتباع طريق من التشف المتطرف ، كان الهدف الذى يسعى إليه ، هو الذى يغيره . كان لا بد له من أن يحافظ على توازنه ، ولكى يحقق ذلك يجب أن يسترد قوته . والهدوء العقلى يجب أن يسعى إليه على طول طريق وَسَطٍ بين التطرف فى إنكار الذات والانغماس الذاتى . واختتم كلامه قائلاً إن « التأمل الصحيح يتولد فى مَنْ عقله حاضر البديهة وفى راحة وهدوء » . وفى الوقت المناسب أحضرت له قروية شابة تدعى سوجاتا Sujata ، أحضرت له لبناً وأرزاً . وباستئناف تناول الطعام العادى ، وإن كان لا يزال مقتصداً فيه ، استرد أخيراً الأمير عنفوانه ، ولم يكن قد حرم من شيء ؛ ولكن تغير موقفه صرف عنه أتباعه الخمسة الذين كانوا قد التفوا حوله .

التنوير :

فى التحلى عن التشف المظهرى لنسآك وحكاماء عصره ، لم يتخل «جوتاما» عن تمريناته الروحية ، ويعودة نشاطه البدنى ، بدأ فى اتباع برنامج فى التأمل . وقد أدرك فى هذه المناسبة ،

أن بحثه يجب إما أن يكون داخل نطاق هدفه ، أو ينتهي بعدم الجدوى وانتشاع الوهم ، والأمريويجب اتخاذ قرار راسخ . وقد جاء في كتاب « محبة البوذا Buddha-Charita) الكتاب الثاني عشر ما يلي : « ثم جلس على فخذه في وضع ثابت لا يتحرك ، وأطرافه مكومة كغشاء ثعبان راقد ، وقال متعجباً : إنني لن أنهض من هذا الوضع على الأرض حتى أحقق أقصى هدف لي . »

وكانت الشجرة التي جلس تحتها « جوتاما » هي شجرة البوذي Bodhi الشهيرة أو شجرة التين ، التي ظهرت إلى الوجود في اللحظات التي ولد فيها الأمير . والمعنى الحرفي لكلمة « بوذي » هو المعرفة ، والشجرة ذاتها كانت شجرة التين التي أطلق عليها الناس اسم بيال Pipal . وتسمى هذه البقعة المباركة الآن باسم بوذا جايا Bodh Gaya ، ومكانها في بيهار Bihar ، حيث شيد معبد ضخم حوالي سنة ٥٠٠ بعد الميلاد ، وتوجد بالقرب منه شجرة تين ، لعلها كانت من سلالة شجرة التين المقدسة ذاتها . وبينما كان جوتاما جالساً عند هذه البقعة ، خيّر ثاني وأعنف سلسلة من غوايات « مارا » ، وكان إله الشر والظلمة قد جند كل أصدقائه في أرجاء الكون . وإلى هناك جاءت شياطين من كل شكل يمكن تصوره ، وكانت كلها سواء في فظاعتها وفي سرعة دورانها في الهواء ، وكانت متملقة ومهددة في آن واحد : لأنه بعد هجوم الشياطين بقذائفها الطائرة ، جاءت مجموعة من الفاتنات الطائرات ، أملمهن على النقيض من ذلك ، أن يركزن شهوانيته . وإنه لأمر حيوي بل مروع ، وصف هذه المجموعة القادمة من الجحيم ، مما يدفعنا إلى إدراك غرضها الرمزي : لما كان « جوتاما » على وشك أن يتخذ قراراً أخذت تدهمه لآخر مرة الشكوك والالتباسات ، فضلاً عن مباحج وغوايات الوجود الإنساني . لقد كانت الخطوة الأخيرة أشبه بأخر صعدة لمتسلق الجبل نحو الأمان ، عندما يبدو في لحظة أن كل ما صعده في خطر من الضياع . ولما كان « جوتاما » وقياً لعهد ، فقد رفض أن يتردى إلى اللهو ؛ ولو اهتز توازن عزمته لما كان ليترحل . ولما كان ذهنه قد جمع شتات نفسه لمجهود رفيع من التركيز ، إذ فجأة ، ولأول بصيص من الفجر ، « بهيكل الجبل وقد تكسر » وبلغ المعرفة التامة ، وصار « الحكيم الكامل الـ « بهاجافات Bhagavat (الإله) والـ « أراهات Arahat » ملك القانون ، والـ « ياثاجاتا Yathagata » ، من بلغ معرفة كل شيء ، الإله العليم بكل شيء . « هذه البصيرة أعقبها رؤيا لكل الأبدية في ومضة واحدة ، مع سلسلة كاملة من الأنسال على كل مستوى من مستويات الوجود تنتظم

أمام عينيه .

وتمثل خبرة «جوتاما» تحت شجرة التين ، اللحظة الحقيقية - وفي اعتقاد بضعة ملايين من البشر ، اللحظة الأكثر أصالة - لتنور النبي ، النبي الذي له صلة قدسية . وبالنسبة للعقلية الغربية ، فإن المظهر الغريب لهذه الرؤيا الفريدة هو فيما يبدو أنها تنير فراغاً ، فليس هناك من إله يمسك ، كما هي الحقيقة ، بالطرف الآخر من الحيط (٣) . صحيح أنه ليس هناك إله ، ومن ناحية أخرى ، هناك شيء : مثل الألوهية ، وعن طريق قانون «الكارما» هناك عقاب إلهي وثواب إلهي . هذا القانون المعقد تعقيداً عجبياً يعمل من منطقة خارج الزمن وفيها وراء التصوي البشرى ، وهو لم يخترعه «جوتاما» . لقد تقبله بدون نقاش على أنه أهم حقيقة من حقائق الخبرة . وعلى شاكلة كافة الأنبياء ، لم تكن رسالة «جوتاما» إلى حد كبير ، إدخال قانون جديد بقصد توكيد استرجاع وإعادة توطيد الاتصالات القديمة .

ولما اعتقد «جوتاما» نفسه في النهاية أنه قد اكتشف سر خلاص الإنسان من الغرور ، أدرك من فوره أنه قد صار «بودا» . ومثل هذا الإدراك لم يؤدي إلى الاعتقاد بأنه كان أول «شخص متنور» يولد بين الرجال ، فليدرك أن هناك بوذيون سابقون أو جيناس Jainas سابقون ، وقد يصبح هناك آخرون مثل «ميتريا Maitreya» . وعلى شاكلة «مهافيرا» و«زارادشت» ، بدأ «جوتاما» مهمته بالاعتقاد بأن التنور قد وهب له في وقت معين ولغرض معين . أما عن تلاميذه وخلفائهم ، فيمكن أن نتعقب فيهم اعتقادهم بأن رسالته كانت فريدة (٤) ، بالرغم من أنها كانت واحدة من بين غيرها من الرسائل .

وطبقاً لما جاء بالكتب الهندوسية المقدسة ، أن «جوتاما» بادعائه أنه صار «بودا» ، قد حكم على قوى الشر في الكون بالإذلال التام . ويقال إنه لما أحس «مارا» بأن قوته على وشك الزوال ، لجأ إلى وسيلة أخيرة لإحباط رسالة «البودا» ، وكان ذلك بإغرائه بالصعود فوراً إلى السماء ، إذ قال بناء على ذلك موجهاً كلامه إلى «جوتاما» : «يا مولاي المقدس ، أدخل البهجة على نفسك بدخول النيرفانا ، فرغباتك محققة» . ويرفض «جوتاما» لهذه الدعوة الماكرة ، صار في نظر مدرسة من مدارس البوذيين ، ليس فقط «بودا» بالمعنى

(٣) سنناقش هذه النقطة مرة أخرى في خانة الكتاب .

(٤) يذكر عنه أحياناً أنه هو التجسيد التاسع للفيشو Vishnu (عل حد اعتقاد البرهمنيين الذين خلفوا

التقليدى ، بل «بوديساتفا Bodhisattva» أو من يتخلى عن طيب خاطر ، سعياً وراء إنقاذ العالم ، عن دخول النيرفانا ، إذ قال : «سأعمل أولاً على توطيد الحكمة التامة في عوالم عددها كعدد الرمال ، ثم أدخل النيرفانا» . ومن ثم فلقد كانت قوى الشر لا يكبح جماحها دائماً إلا «البوذا» ، الذى أجّل لمدة ثمانين عاماً طريقه إلى الزوال .

وبعد بضعة أسابيع من تلقيه التنور ، رحل البوذا إلى مدينة «بنارس» المقدسة ، وقام بعدة هدايات في أثناء رحلته . وفي الوقت الذى يتصور فيه علم الأسطورة التقليدى «البوذا» على أنه شخصية جليلة وسامية ، إذ بالرجل الذى كان عليه أن يغير نظرة ملايين كثيرة : بمضى حياته كشحاذ يعيش على الإحسان . وفضلاً عن هذا ، فإن ادعاء أنه صار «بوذا» ، لم يوهب «جوناما» موهبة خاصة للتأثير على أتباعه ، اللهم إلا القدوة الحسنة ، وإلا البلاغة . ولا تتفق رسالته في شيء مع رسالة الساحر أو رجل الطب . وبدلاً من علاج المعاناة ، نادى فقط بالتعرف على حقيقة أمرها . وكان على تلميذه ، بعد تنوره ، أن يعمل على تحقيق خلاصه الذاتى . ولم يتضمن التنور أيضاً أية ممارسة معينة للإدراك : إذ لم يكن أحد من كبار دعاة المذاهب الميتافيزيقية ، اللهم فيما عدا كريشنا (الذى تقحت مؤخراً محاوراته في الـ «هاجافادجيتا») . لقد قال «البوذا» في مناسبة من المناسبات : «إن إثبات النيرفانا ليس إثبات أعداد ولا إثبات منطوق : فليس على العقل أن يثبت بل على القلب» (نقلًا عن كتاب : لانكافاتورا سوترا Lankavatara Sutra) . ولم يستخف البوذا بالتأمل الميتافيزيقى فحسب ، بل كان يتطلع إليه في أحسن صوره على أنه تحول ، ثقافة غير ضرورية ، أشبه بالأفعال البهلوانية ، وفي أسوأ صورة على أنه عائق لفهم الحقائق البسيطة ، لو كانت غير مستساغة ، ومن كان على صلة روحية لا يحتاج إلى الميتافيزيقيات . والميتافيزيقيات إن هي إلا نتيجة تعقب جلى^(٥) Disputatious Discipleship .

وفي شمال بنارس توجد حديقة اسمها «حديقة الغزال» ظلت مثل «بوذا جايا» ، مكاناً للروابط المقدسة في نظر البوذيين . وإلى هذه الناحية خطا «البوذا» خطواته بعد أن عبر نهر الجانج في صورة من صور الطيران في الهواء ، لعله كان يعلم أنه قد يجد هناك تلاميذه الذين

(٥) نحن لا نتفق مع الأسقف جور Gore فيما ذكره في كتابه فلسفة الحياة الصالحة Philosophy of the Good Life الذى جاء فيه أن «دعوة «البوذا» كانت أسمى درجة من درجات الإدراك ومن ثم فإن أناساً على شاكلة غير المتعلمين وغير البارعين في التأمل التجريدى لا يمكنهم أن يفهموه» ، والرد على ذلك هو أن البوذا تجنب التأمل التجريدى .

طردهم مؤخراً ، فلما وجدوه يقترّب منهم شعروا باستنكار عام ، وقال واحد منهم للآخر : « هذا هو جوتاما الناسك الذى تمخّل عن ضبط نفسه ، وهو يتجول الآن ، نهماً ، ذا نفس غير صافية ، غير مستقرّة ، وأحاسيسه ليس لها ضابط ثابت ، متحمس للبحث عما يأكله . إننا لن نسأل عن صحته ولن نهض للقاءه ، ولن نكلّمه ولن نرحب به ولن ندعه يجالسننا ، ولن نسمح له أن يدخل دارنا » . لقد أدرك البوذا عداوتهم له ولكنه تجاهلها . لقد كان لبساطته فى الاقتراب منهم ، وهو ممسك بوعاء الشحاذاة فى يده ، ما أفحهم . لقد وجدوا أنفسهم يببون واقفين ، فقال لهم فى هدوء : « اعلموا أنى جينا Jainana وأنى قد جئت لأكون أول من يدفع إليكم بعجلة القانون » . وبعد أن وافق « جوتاما » على انضمام الرجال الخمسة إلى طائفة دينية جديدة للاستجداء ، تقدم ليعظهم أول موعظة من مواعظه العظيمة وكان عنوانها « منهاج لتسيير عجلة المبدأ » ، وهى تعد أحياناً كمثّل بوذى لـ « موعظة الجبل Sermon on the Mount ^(٦) » .

أولى التعاليم :

سميت « عجلة المبدأ أو القانون The Wheel of Doctrine or the Law » بهذا الاسم لأنها تتم بعجلة الحياة البشرية والولادة للمرة الثانية . وبدون التنور ، فالوجود ليس سوى تعاقب خيوات عديدة النفع ، وعمل رتيب للفناء ، سامسارا Samsara كيف كان إذن فى الإمكان الوصول إلى التنور ؟ تبدأ موعظة « البوذا » بعرض للإفراطيين اللذين يجب تجنبهما : فالإفراط الأول الواضح هو الإفراط فى المتعة الجسدية ، ولا شىء يدفع بالعجلة إلى الوراء أكثر من الانغماس فيها ، لأن الاستمتاع لا يزيد من سخطنا على كل شىء آخر فحسب ، بل يمتد السخط عليه ذاته ، فنحن فى مواجهتنا لهذا الفراغ نحتاج إلى مزيد من النوع نفسه للثمة ، حتى يدفعنا هذا إلى الاشتراك فى عملية مماثلة لاستعارة أنفسنا وفناء لدين . وأما الإفراط الثانى الذى ينبغى تجنبه فهو الإفراط فى إذلال النفس Mortification . وطبقاً « للبوذا » ، فإن هذا الإفراط لم يكن أكثر فائدة من الأول ، إذ إنه لاينجم عنه فحسب زيادة اضطراب بل يؤدى أيضاً من الناحية المنطقية إلى الفناء قبل اكساب أية ميزة حقيقية . كان هذا هو

(٦) إشارة إلى ماكان يلقبه المسح عليه السلام من مواعظ على الجبل . (المترجم) .

الاعتراض على أنه لو كان «البوذا» قد عرف هذه الحقيقة (ومن المحتمل أن يكون قد عرفها) لفضّلها على تعاليم «مهافيرا». إن الهدف الحقيقي الذي يكون السعى لبلوغه هو الهدوء والسكينة ، وهو الشرط ، وفي العادة الدلالة على الحكمة . وسيرا على نهج الحكماء العظام الذين كتبنا عنهم ، يعرف «البوذا» وسيلة الحفز إلى هذا الإطار العقلي بأنها كغرس لموقف «سليم» سلامة تستمد دقتها بكونها ثمرة «الطريق الوسط» بين إفراطيين . ويتألف «الطريق السليم» ذو الثماني شعب « كما يسمى ، من وجهات نظر سليمة ، غرض سليم . حديث سليم ، سلوك سليم ، وسيلة سليمة للعيش ، مسمى سليم رغبة سليمة ، تفكير سليم ، ويغرس هذا الموقف المترن سنصل إلى إيقاف هذه المعاناة الشاملة التي هي نتيجة حتمية ومصاحبة للرغبة . والرغبة كما يلاحظ «البوذا» بخاصية التبصر هي التي تسبب «تجديد الصيرورة The Renewal of Becoming» .

وتحليل البوذا للرغبة Craving صار معروفاً في الكتب الهندوسية المقدسة على أنها «الحقائق الأربع النبيلة» ، وهي تشكل ملخصاً دقيقاً للألم الذي هو نتيجة الرغبة . يورد أولاً تعريف ماهو مؤلم : الميلاد ، كبر السن ، المرض ، الحزن ، واليأس والقبح وما إلى ذلك ، ثانياً : يورد تعريف سبب الألم الذي هو الرغبة ؛ ثالثاً : يورد تعريف كيف يمكن التغلب على الألم ، الذي يأتي عن طريق عدم الاتصال ، ورابعاً يورد تعريفاً بالبدء الذي يمكن الوصول عن طريقه إلى عدم الاتصال ، الذي هو الطريق ذو الثماني شعب .

وابتداء بالنسك الخمسة أو البيكوس Bhikkus ، الذين صاروا أول النسك البوذيين الحقيقيين ، اتجه البوذا إلى هدى المئات ثم الألوف ، ثم بمضى الوقت الملايين . وأرسلت بعثات معتمدة في أرجاء «أوذ» و «بيهار» و «بنغال» ، وإن كان في الواقع كل ناسك ومعه وعاء شحاذته مبعوثاً شاهداً على التنور . وكانت أوامر «البوذا» اليومية لنساكه : «قوموا بجولاتكم لخلاص الكثيرين ، لسعادة الكثيرين ، مع الإشفاق على الكل ، لخير الآلهة والناس» وبالرغم من أن «البوذا» كان يعظ ويطبق معاً فضائل الرقة والتواضع والتنظيم الذاتي والاحتمال ، فإنه لاجدوى من تصوره في صورة من يعوزه النشاط والحماسة بل حتى العاطفة . وبعض مواعظ «البوذا» المسجلة ممتلئة بنوع من الرقة واللطف ، التي نفرنا بمواعظ القديس فرانسيس الأسيسى St. Francis of Assisi وإن كان هذا الاقتران ليس بصورة دقيقة دائماً ، أما المواعظ الأخرى ، وبصورة خاصة ، موعظة النار Fire Sermon أو «موعظة

عن الدروس المستخلصة من الحرق»^(٧) فهي واحدة من أعظم مواعظه ، وهي تعرض نوعاً من العاطفة التي نجدها عند أهم أنبياء العبرانيين ، فضلاً عن أنها كتبت بلغة لم يكتب الشعراء قط بلغة لها مثل هذه الدرجة من القوة . وموعظة النار يجب ألا تتخذ منها مقتطفات : فهي تشكل فقرة طويلة من عبارات حماسية . ولم يحدث من قبل على الإطلاق ، ولا في أي مكان آخر من العالم ، ربما فيما عدا بابل ، فيما يتصل بالأسرى اليهود - إذ ربما كان «اليوذا» معاصراً لأشعياء الثاني - أن وُصفت الطبيعة البشرية على حالها ، بمثل هذه البلاغة :

«أيها الكهنة ، كل الأشياء متقدة ناراً : الصور متقدة ناراً ، الوعي العيني متقد ناراً ، الانطباعات التي تلقاها العين متقدة ناراً ، وأي إحساس : بهيجاً كان أو غير بهيج أو تافه ، يعتمد في أصله على الانطباعات التي تلقاها عن طريق النار هي أيضاً متقدة ناراً ، وبأي شيء هذه الأشياء متقدة ناراً؟

«أقول ، بنار العاطفة ، بنار الكراهية ، بنار الافتنان بالميلاد ، بالشيخوخة ، بالموت ، بالحزن ، بالرتاء ، بالبؤس ، بالأسى ، وبالأيام ، كلها متقدة ناراً .
«والأذن متقدة ناراً . والأصوات متقدة ناراً... والأنف متقد ناراً ، والروائح متقدة ناراً .. واللسان متقد ناراً ، والأذواق متقدة ناراً . والجسد متقد ناراً ، والأشياء المحسوسة متقدة ناراً .. والعقل متقد ناراً .. والأفكار متقدة ناراً .. والوعي العقلي متقد ناراً . والانطباعات التي يتلقاها العقل متقدة ناراً وأي إحساس ، بهيجاً كان أو غير بهيج أو تافه يعتمد أساساً على الانطباعات التي يتلقاها العقل ، الذي هو أيضاً متقد ناراً ، وبأي شيء هذه الأشياء متقدة ناراً؟

«أقول ، بنار العاطفة ، بنار الكراهية ، بنار الافتنان بالميلاد ، بالشيخوخة ، بالموت ، بالحزن ، بالرتاء ، بالبؤس ، بالأسى ، وبالأيام ، كلها متقدة ناراً .
«يادراك هذا ، أيها الكهنة ، يحس الإنسان العالم والحوراء النبيل بمقت للعين ، ومحس بمقت للصور ، ومحس بمقت للوعي العيني ، ومحس بمقت للانطباعات التي تلقاها العين ، ولأيما إحساس بهيجاً كان أو غير بهيج ، أو تافه ، يعتمد أساساً على الانطباعات التي تلقاها العين ، فذلك أيضاً يحس بمقته له .. وفي الإحساس بهذا المقت ، يصبح مجرداً من العاطفة ،

وفي غياب العاطفة ، يصبح حراً ، وعندما يكون حراً يصبح على دراية بأنه حر ، ويعلم أن الولادة للمرة الثانية أمر مستبعد وأنه قد عاش الحياة المقدسة ، وأنه قد أدى ماهو مفروض عليه أداؤه وأنه لم يعد له بقاء بعد ذلك في هذا العالم «

وقد يكون عجباً كيف أن فلسفة تكاد تكون قائمة كلها على المقت لكل ماهو بشرى وطبيعي ، أتيح لها أن تصبح « نظرية حياة View of Life » لمئات الملايين من الناس : ألا يمكن أن تكون النتيجة المنطقية لمثل هذه الاستنكارات للحياة هي : « الجينا » الروحية الذاتية للربوة ؟ من الواضح أنه ليس كذلك . ولما كان « البوذا » قد خبر عن ترو ، مثل هذا التشف المتطرف ، لذا فقد رفضه كأسلوب روحاني لاطائل تحته . والفقير المحترف يميل إلى أن يكون استعراضياً ، وصرامته في أفكاره واضحة للعالم بأسره ليراهما . والموقف المطلوب والذي نادى به « البوذا » يستبعد مثل هذه المظاهر . والنضال من أجل التغلب على الرغبة وعلى الشهوة شيء داخلي . وفي الوقت الذي نجد فيه أن « البوذا » قد نبذ اللحم ، يلاحظ أن هذا التخلي لاتصحه هستيريا مذهب المتطهرين الغربيين Western puritanism ، وهي ببساطة دلالة على اجتذاب مستتر . وللتعبير عن كراهية لاحد لها حياة الأحاسيس هو أن تضيف وقوداً إلى نار من « النيران » هي في حاجة لأن تحمد بأسرع مايمكن ، أعنى بذلك نار الكراهية .

ولم يرجع « البوذا » إلى استعارة النار في « موعظة النار » فحسب بل إن الصورة لتتكرر مرة أخرى في أقواله المسجلة . ولعلنا نذكر أنه قبل « الاعتكاف العظيم » عندما استيقظ من السبات الذي كان يغط فيه في الاحتفالات التي شهدها القصر ، خبر إحساس من شبت في داره النيران . بمعنى آخر ، كان في اعتقاده أن الإجراءات العملية للخلاص أكثر أهمية من البحث وراء أصل الحياة والشر والإله وكلما سئل البوذا أسئلة عن الإله ، كانت إجاباته تم عن مراوغة مبهمة ، وكانت أحياناً بصراحة ، إجابات غير مرضية^(٨) ففي مناسبة ، على سبيل المثال ، سأله واحد : « سيدي ، هل هناك إله ؟ » فلم يرد على سؤاله بجواب بل بتوجيه السؤال التالي : « هل قلتُ أنا أن هناك إلهاً ؟ » وعليه رد السائل وهو في حيرة بقوله : « إذن ليس هناك إله ، ياسيدي ؟ » فرد البوذا على ذلك بسرعة قائلاً : « هل قلتُ إنه ليس هناك إله ؟ » مثل هذا الموقف المراوغ ، موقف غير عادي بالنسبة لزعيم ديني ، ويمكن إدراكه فقط لو أننا أخذنا

(٨) سلاحظ أن إجابات كنفوشيوس Confucius كانت بالطريقة نفسها .

في اعتبارنا ملاحظة كان مولعاً بترديدها على مسامع تلاميذه ، وهو يقدم مرة أخرى الصورة المألوفة هي : « لو شبت النار في منزل ، هل تتجه أولاً إلى تعقب منشأ النار أم أنك تحاول أن تحمدها؟ » . وليست عند الـ « تاتاجاتا Tathagata » أية نظريات ، وتلخص رسالة « البوذا » في بلاغة تامة . إن ماعنده فقط الجانب العملي . ويلاحظ في شعر « البوذا » الحماسي العظيم المسمى باسم « ذامآباراداد Dhammapada » الذي يعتبره بعض علماء الشرق في مكانة تفوق الـ « بهاجافاد - جيتا » نفسها - يلاحظ أنه تتردد فيه الكلمات التالية : « كيف يكون هناك ضحك ، كيف يكون هناك مرح ما دام العالم دائماً في احتراق ؟ » .

عودته إلى داره :

يعد تعقب أحداث حياة البوذا من لحظة تنوره التي حدثت عند ما كان في قرابة الخامسة والثلاثين من عمره ، إلى لحظة وفاته بعد ذلك بنحو خمسة وأربعين سنة ، يعد أمراً صعباً . ومرد ذلك إلى تعدد الأساطير التي تجمعت حول اسمه . ومن الأحداث العظيمة في حياته التي يمكن أن نعلق عليها ثقتنا أن أوبته إلى داره في وطنه وإلى أسرته ، ربما كانت أكثر درامية . وأياً كانت براعة أعماله وسلوكه قد بلغ خبرهما مملكة الهملايا النائية ، فلم يكن الملك العجوز ولا الزوجة التي كانت لاتزال شابة ، غير معدتين تماماً للمشهد الذي حياهم به البوذا في النهاية ، برغم أنها بعثا إليه مراراً وتكراراً برسائل يرجوانه العودة . وفي ارتدائه ، في بساطة زياً أصفر كزى الناسك التقليدي ، وبرأسه الحليق ووجهه الحليق^(٩) ، دخل الأمير الذي كان قد استبدل بملك دنوبى ملكاً سماوياً ، دخل المدينة التي شهدت مولده ، بطريقة لم تكن تتوقعها أسرته على أقل تقدير . إذ « بالجيننا » الذي لم يكن في استطاعة أية امرأة أن تلمسه ، يصبح محرماً أن تحميه زوجته هو نفسه ، ولذا كان أهل المدينة في دهشة لرؤية الأميرة تقف وقفة الشخص المتباعد في الوقت الذي كان زوجها يتحرك في اتجاه القصر الملكي الذي كان قد غادره خفية .

كانت زيارة البوذا فترة نشاط تبشيري عظيم ، ولكن بالرغم من أن « جوتاما » قد رفض كل الروابط الدنيوية ، فلقد كان حريصاً على أن يولى احترامه لأسرته ، بل لقد قام برحلة

(٩) قارن ذلك بما جاء في كتاب « نور آسيا The Light of Asia » تأليف « ادوين آرنولد Edwin Arnold » :

« يرتدى ثلاثة أردية بسيطة ، صفراء اللون من قماش مرتق يرتديها والكيف حاسر ، بالإضافة إلى حزام ووعاء شحاذة ومصفاة » .

خاصة إلى « غابة لومبيني » ، وهناك ، ولتقتبس كلمات كتاب « محبة البوذا Buddha-Charita » :
 « رأى شجرة التين المقدسة ووقف بجانبها مبتسماً يتذكر مولده ». كانت هذه هي المناسبة
 الوحيدة ، كما يبدو ، التي لم يثر فيها موضوع ولادته شيئاً سوى الكتابة . وبعد أن كرم ذكرى
 أمه ، تقدم ليستقبل في طائفته الدينية عدداً كبيراً من أبناء وطنه ، من بينهم أفراد من أسرته ،
 وعلى رأسهم زوجته وابنه وأخوه . وقد دُفع أخوه « ناندا Nanda » دفعا إلى الانضمام إلى
 هذه الطائفة ، عن طريق خدعة ، وقد اضطر بالقوة إلى أن يخلق . وربما كانت رواية هذه
 العملية ، عملية الضغط على الأشخاص ، ربما كانت الحادثة الهامة الوحيدة الطريفة تماماً
 في الكتب المقدسة لأية ديانة من الديانات ومن ثم ، فقد تحقق وعد « جوتاما » بالعودة إلى
 أسرته ، وزال غضب زوجته وحل محلّه ولاء دائم . ولم يعد البوذا إلى داره مرة أخرى على
 الإطلاق وإن كان قد سُجِّل أنه قام برحلة روحية ليستقبل أنفاس أبيه الذي كان على فراش
 الموت ، وفي مناسبة من المناسبات قضى ثلاثة أشهر في السماء يلقي أمه القانون .

ولما هو معلوم من مقتنه للجنس ، فلا يمكن أن يكون السماح بانضمام النساء إلى طائفته
 الدينية قد تقرر دون تفكير عميق . عندما قرر في النهاية أن يسمح للنساء بأن يصرن راهبات
 مبتدئاً بمخالته « مايا براجاباتي » ، قيل إنه لاحظ في مرارة أنه بهذا العمل قد وفر على الأقل
 نصف الفترة التي يجب أن تباشر خلالها ديانته نفوذها في العالم . وواضح أنه قدر هذه الفترة
 بمئمة سنة ، ولو أن البوذية قد انتعشت بالفعل أربعة أضعاف المدة المتوقعة لها . ورغم أنه
 حذر أتباعه من الرجال بالإقلال من التعامل مع النساء قدر المستطاع ، لم يظهر هو نفسه نفوره
 من تكرار مصاحبتين ، فثلاً عندما قابلته المحظية المشهورة « أمبايالي Ambapali » في
 غابة المانجو الخاصة بها في فيسالي vesali حيث يبدو أنه كان قد ذهب إليها عمداً ، حياها
 بمنتهى الأدب واتجه على الفور « ليعلمها ويوقظها ويحثها ويدخل عليها البهجة بمحاضرة دينية » .
 وأكثر من هذا ، عندما دعت في اليوم التالي لتناول وجبة في منزلها ، قَبِل الدعوة (إذ لاذ
 بالصمت الذي يعنى الموافقة) فتوجه في صحبة إخوانه ومعه قريبه المفضل عنده « أناندا »^(١٠)
 Ananda « الذي كان قد حذره بصورة خاصة من العنصر النسائي . وفي هذه المناسبة ،
 انتهر الفرصة بالمثل ليعظ في النهاية مضيفته التي بعدها نعتته ، على شاكلة مريم المجدلية
 بـ « الرسول الإلهي للبشرية » ومنحته قطعة أرض . وقد يبدو أن البوذا أراد أن يوضح ، بمظهر

(١٠) كان أناندا أحد أفراد قبيلة شاكيا Shakya ، فضلاً عن أنه كان ابن عم البوذا .

يتم عن عدم الاكتراث ، أنه يرى ألا تمييز بين البشر ، سواء بالنسبة للجنس أو الطائفة ، بين الصالح أو المذنب وبرغم ذلك فقد راعى أن ينهى تلاميذه ، وهو الذى كان يدرك ضعفهم ، عن أن يكونوا أصدقاء أو رفاقاً أو أصدقاء حميمين للمذنبين . وبالمثل ، فإنه برغم أنه توقع أن نسأكه « لن يتوقفوا فى طريقهم لبلوغ النيرفانا » ، فلقد كان يعلم مثلما كان يعلم زارادشت أن غالبية الجنس البشرى يمكن أن تنفذ ، ولكن بدرجات . وفى بيان عن عادات البوذا اليومية ، كتب أحد المعاصرين له ويدعى « بوذاغوشا^(١١) Buddhaghosha » تعليقاً على « ديغا - نيكايا Digha-Nikaya » وهى مجموعة من المحاضرات البوذية الطويلة ، يقول فيه إنه « بعد أن ينتهى من تناول وجبته (الصباحية) يقوم السيد المبارك The Blessed One مع تقدير مناسب لمختلف نزعات عقولهم ، بتعليمهم المبدأ حتى يمكن أن ينتظم بعضهم فى الملاجئ وبعضهم يلتزم بالوصايا الخمس ، وقد يتحول بعضهم وقد يصل بعضهم إلى ثمرة عودة واحدة (إلى الأرض) أو عدم العودة إلى الإطلاق ، فى حين قد يصل بعض إلى أسمى غاية ، أعنى مرحلة القديسين ، وقد يعتزل العالم . » والحقيقة هى أنه برغم حماسه المتطرفة لمبده كانت للبوذا - على شاكلة يسوع - بصيرة غير عادية يتغلغل بها فى الضعف البشرى ، وكانت عاطفته مساوية لإدراكه .

دنو أجله :

بعد إقامة « جوتاما » فى فيسالى ، حيث كان يُعد بعض سلوكه بطبيعة الحال ، سلوكاً خارجاً على المذهب وكان قد انقضى عليه وقت ذاك خمسة وأربعون سنة من صيرورته بوذا ، قرر أن يقضى موسم الأمطار فى قرية بيلوفا Beluva . وكان فى الوقت نفسه قد صرف عنه أكبر عدد من تلاميذه . وعندما بدأت الأمطار ، عاجله المرض فجأة وقد برح به الألم وبدا على وشك أن يموت . وطوال هذه المحنة راوده خاطر واحد : لن يسمح لنفسه أن يموت دون أن يودع أفراد طائفته الدينية ، ولهذا قرر أن يطيل مدة حياته لفترة قصيرة .

وفى استجابه لعزيمته لبذل مجهود يكاد يكون فى عظمته كعظيمة ذلك الذى حملة طيبة تلك السنوات الماضية منذ أن كان إنساناً عادياً إلى أن صار « بوذا » ، تغلب على المرض مرة أخرى ، وزايله بصفة مؤقتة . وقصة حوارته التالى مع « أناندا » مثيرة جداً ، إذ أن « أناندا »

(١١) عاش فى القرن الخامس الميلادى .

الذى اعترف أن حاله النفسية قد انهارت عندما علم بمرض سيده ، تملكه البهجة حالما علم أنه كان لا يزال في مقدوره أن يتلقى بركة أخيرة ورسالة وداع أخير. لقد أجاب المبارك : « ماذا تتوقع الطائفة الدينية ؟ » لقد وعظت بما هو الحق دون أن أميز بين المبدأ الواضح والمبدأ الخفى ، لأنه بالنسبة للحقائق يا أناندا فإن الـ « تاناجاتا »^(١٢) لم يعتد أن يخفى شيئاً مثلما تخفى قبضة يد المعلم المغلقة بعض الأشياء ... والآن يا أناندا ، لا يظن الـ « تانا جاتا » أنه هو الذى يجب أن يقود الإخاء ، أو أن الطائفة الدينية يجب أن تعتمد عليه. لماذا إذن كان عليه أن يُخلف تعاليم في أى مجال يتناول الطائفة ؟ كذلك حالى أنا يا أناندا ، قد تقدمت في السن ، وقضيت سنين كثيرة واقتربت رحلتى من نهايتها ، لقد بلغت قمة أيامى ، وأوشكت على الثمانين من عمري : وتماماً كالبرميل البالى ، يا أناندا ، يمكن الاستمرار في استخدامه ولكن فقط بالاستعانة بسيور من الجلد ، ولذلك ، فأننى أعتقد أن جسد الـ « تانا جاتا » يمكن أن يستمر في أدائه لعمله فقط عن طريق تضميده . ثم أوصى « أناندا » بأن « يظل نشيطاً رابط الجأش ، متبهاً ، بعد أن يكون قد تغلب على كل من الانحراف والاكتئاب المشائعين في العالم » .

وقد ظل البوذا لفترة من الزمن يحيا حياته القديمة ، حياة التسول وذات صباح دعا « أناندا » أن يقضى اليوم معه عند مزار تشابولا Chapola وهناك زاره « مارا » الشرير آخر زيارة له . وفي اتخاذه دوراً ، شبه في ظاهره دور نيكوميديس Nicomedes ، بالرغم من أنه تدفعه دوافع ماكرة خالصة تضرع « مارا » أن يكون دنو الموت من « البوذا » الانتصار الأخير للخير على الشر . ولكن المبارك ، في إدراكه لتهمك مارا في تضرعه أجابه قائلاً : « أيها الشرير ! أدخل الفرحة على نفسك ، سيتحقق موت التانا جاتا قبل مضي وقت طويل ، ففي نهاية ثلاثة أشهر من هذه اللحظة سيولى التانا جاتا » . وبعد أن تفوه بهذه الكلمات قرر أن يتخلى عن تلك العزيمة الغريزية في البقاء التى اعتمد عليها وحدها منذ بدء مرضه . ولما كان تمسكه بالحياة قد تراخى ، فلقد تعرضت عناصر الطبيعة لسلسلة من الانتفاضات مساوية لتلك التى حدثت عندما حُمل به ، فكانت هناك عواصف رعدية وهزات أرضية وأمور مروعة مماثلة . والحادثة الهامة الأخيرة التى تروى تقليدياً عن « البوذا » ، هى عن زيارته للحداد تشوندا Chunda الذى كان مشغولاً بمصادفة وسهواً عن وفاة المعلم . إنها قصة غريبة : فلقد قرر « البوذا » أن يبقى لبرهة في غابة المانجو التى يمتلكها تشوندا ، وفيها دعا مضيفه لتناول وجبة

(١٢) لقب الـ « تانا جاتا » يعنى حرفياً « من لا يعرف من أين جاء ولا المكان الذى يقصده » .

من الأرز المحلى بالسكر والكعك وعيش الغراب . وعندما كان المبارك مع إخوانه ، طلب من تشوندا أن يقدم الأرز المحلى بالسكر والكعك للآخرين وأن يحتجز عيش الغراب له وحده وتمادى أكثر من ذلك إذ قرر أن أى عيش غراب يتبقى يجب أن يحرق ، وقال مفسراً : « لأننى لا أرى أحداً على الأرض لا فى مجال « مارا » ولا فى سماء « براهما » ، لو أكل ذلك الطعام ، يمكنه أن يهضمه هضمًا جيداً إلا التاناجاتا » .

وبعد مضي وقت قصير من مغادرته لغابة المانجو التى كان يمتلكها تشوندا ، إذ « بالبوذا » الذى كان بالفعل فى صحة متدهورة ، يعاوده المرض ثانية ، وعاعوده هذه المرة فى صورة ديستاريا حادة .

وكان سلوكه ، كما لو أن هذا المرض المفاجئ كان شيئاً ينتظره . وفى معاناته ، مع ذلك لم يعجز عن أن براعى مشاعر مضيفه الأخير . وفى إدراكه أن تشوندا قد يتملكه الهلع والتأنيب الذاتى على أنه كان سبباً غير مباشر لألم المبارك ، أصدر تعليماته بصورة خاصة إلى أناندا بأن يريح بال مضيفه ويسكن من روعه ، بأنه بتقديمه الطعام « الذى كان مقدراً أن يكون سبباً لوفاة البوذا تلك الميتة التى لا يبقى بعدها شيء أبداً كان على الإطلاق » قد بلغ ، كما فسر ، نوعاً من المهوبة . وفى تمسكه بالإيمان الصحيح وكدليل على الاحترام والتقدير ، ربما كان عمل تشوندا يستحق بالنسبة لمقترفه غفران الكارما ، ابتداء بمد أجله وازدياد ثرائه . وهذا الأسلوب من الرعاية قد يكون بالغ الأهمية لو ظلت الرعاية حتى نهاية الزمن . وهكذا كوفئ تشوندا . وعند بقعة تدعى غابة الموالح فى مالأس Mallas ، بالقرب من نهر هيرانيافاتى Hiranyavati قرر البوذا ، وقد هذه المرض أن يعد نفسه للحظات الأخيرة . ولقد قيل إن أشجار الموالح الجميلة ، لما شاهدت جسد المبارك راقداً أمطرته بأزهارها ، فى حين هبطت موسيقى سماوية فى اتجاه الأرض « إجلالا واحتراماً لخليفة البوذات السابقين » . وفى إدراك لهذه الهدية التى جادت بها الطبيعة تلفت « البوذا » إلى أناندا وقال : « ليس هكذا يا أناندا يكرم التاناجاتا التكرم الصحيح .. ولكن الأخ والأخت هما اللذان يحققان باستمرار كل الواجبات معظم منها وما صفر - هما اللذان يكرمان التاناجاتا بأن يقدموا له أعظم ولاء يستحقه » . ثم انتقل بعد ذلك إلى تحديد أماكن الحج الأربعة ، التى ينبغى أن يحث الحجاج والتلاميذ على التجمع فيها بعد أن يحرمهم الموت من معلم صالح . وهذه الأماكن من المفروض أن تكون : مكان ولادة « البوذا » ، والمكان الذى بلغ فيه رؤية الحقيقة التى تأكدت بها صيرورته

«بودا» ، والمكان الذي بدأ فيه تأسيس ملكه السماوى ، والبقعة التي يرقد فيها في تلك اللحظة وسيموت فيها . ومازالت تعتبر هذه الأماكن مقدسة حتى اليوم .

ولقد ائتمن المعلم بصورة خاصة ، صديقه الوفى وتلميذه أناندا ، الذى يعد بمثابة قديس يوحنا البوذية St. John of Buddhism ائتمنه على أفكاره الأخيرة ، التي سجلت في النهاية . وإذا لم يكن المتور قد خلف أية رسالة أطول من تلك الرسالة التي اقتبسنا منها ، فلقد خلف سلسلة من التعاليم المتنوعة ، إذ أصدر بهذه المناسبة على سبيل المثال تحذيراً لأناندا من النسوة اللاتي أشار إليهن :

- «كيف يكون سلوكنا نحن أنفسنا ، يامولاي إزاء الجنس النسائي ؟» .

«كما لو أننا لانراهن يا أناندا» .

- «ولكن لو أننا رأينا هن ماذا علينا أن نفعله ؟»

«لانخطبين يا أناندا» .

- «وإذا كان لابد من مخاطبتين يامولاي ماذا علينا أن نفعله ؟» .

«أن نكون حذرين تمام الحذر يا أناندا (١٣)» .

وبالإضافة إلى هذا التحذير الصارم أصدر البوذا تعليمات معينة عن إدارة الطائفة في المستقبل يمكن أن نلاحظ فيها مبادئ التفرقة والتمييز : مظاهر لم يكن لها وجود أصلاً في الطائفة البوذية عبرت ليس فقط عن صورة من صور المعارضة لمذهب البراهمانية ، بل عن احتجاج ضمني للمذهب بوجه عام . وبينما كانت العادة المتبعة خلال فترة حياة «البوذا» هي أن ينادى الإخوة بعضهم بعضاً بعبارة آفوس Avus أو صديق ، أعرب المعلم عن رغبته في وجوب التخلص من مثل هذه الشكليات من ذلك الحين . وبينما كان الإخوة الكبار مستمرين في مخاطبة من يصغرونهم وفقاً للأسلوب القديم أو بأسمائهم ، صار من الواجب أن يُحيون هم أنفسهم بكلمة «سيد» بل حتى بعبارة «السيد الجليل» ومن ناحية أخرى عبر «البوذا» ، الذى كان ينظر إلى مبدئه على احتمال أن يظل ثابتاً فقط حتى مجيء «بودا» آخر ، وفقاً للأسلوب الجيني الصحيح عبر عن رغبته في ألا يحير تلاميذه الأخيرين بقواعد ووصايا من المحتمل أن تصبح قديمة . وأخيراً أعاد توطيد مذهبه عند تلاميذه ، الذين أعلنهم فرداً

(١٣) من الطريف أن نذكر أنه في علم الأسطورة البوذية ، تصوّر إلهة الحب أو الرغبة راني Rati على أنها ابنة «مارا

وجاعة - حتى من هم أكثر تخلقاً - أنهم قد بلغوا تلك المرحلة من التنوير التي لم يعد فيها من الضروري معاناة الولادة مرة ثانية .

وعندما أدرك أناندا أن سيده كان بالفعل على وشك أن يموت توصل إليه أن يطيل بقاءه الدنيوي لفترة أطول ، بل لولدته مادام ذلك في مقدوره ، فأنبه «البوذا» تأنيباً يكاد يكون عنيفاً في التعبير عما هو مخالف لما رسمته الإرادة الإلهية . وأخيراً اقتنع أناندا بالإذعان للرحيل البدني لمعلمه ، ولقد جادله «البوذا» قائلاً : « ألم أذكر لك من قبل أن نفس طبيعة كافة الأشياء القريبة منا والعزيرة علينا ، هي أننا يجب أن نزل أنفسنا عنها ، نتركها ، نفصل أنفسنا عنها ؟ إذن كيف يمكن أن يكون هذا مستطاعاً يا أناندا - في حين أن أى شيء كيفما كانت ولادته وكيفما جاء إلى الوجود ونظّم أمره يحوى داخل نفسه الضرورة الفطرية للتحلل - كيف يمكن أن يكون هذا مستطاعاً إذن أن مثل هذا الكائن يجب أن يتحلل ؟ » . وبعد قوله هذا ، أمر أناندا بأن يجمع كل الإخوان وألقى عليهم حديثاً مختصراً ، وكان هذا الحديث آخر حديث علني هام ، أجمل فيه الأفكار الأساسية لمبدهه وختمه بكلمات صارت مشهورة : « كل الأشياء المركبة لا بد أن تهرم . حقق خلاصك بالجد والاجتهاد »^(١٤) .

وبعد أن قطع في النهاية اتصاله بالجنس البشري ، غرق «البوذا» في حالة التملك الصوفي ماراً على التوالي خلال أربع مراحل من مراحل جهاناز Jhanas التي تبلغ ذروتها بالوصول إلى الرؤيا الموحدة . وبدخول هذه المراحل ، طرحت النفس تدريجياً ، كما كان واقع الأمر ، صورها السطحية للوعي وبلغت حالة « الطرب المثالي » وهي المرحلة الأخيرة من الطريق ذى الثماني شعب ، التملك في آن واحد لكل شيء وللأشياء النيرفانا . ومن ثم فإن « البوديساتفا » بعد أن حجب نفسه عن السماء لينقذ البشرية من طغيان الأثرة والرغبة ، قصد بنهاية رسالته العودة إلى خير البراهمانيين : أما « الحياة » الختامية التي احتجزتها له « الكارما » التي تخصه ، فقد أخذت طريقها .

وتمشياً مع التعليقات التي تلقاها أناندا ، وكدليل على الاحترام الذي كان يكنه التامس له أقيمت « للبوذا » جنازة جدية بأعظم نبيل أو حاكم . وقد قسم رماده (لأن جسده قد أحرق) بين أفراد أسرته ورجال معينين من ذوى النفوذ ممن أقرؤا رسالته . وقد اكتشف قبر في

(١٤) قارن ذلك بالكلمات التي نفعها بها الطبيب النفساني في مسرحية ت.س. اليبوت T.S-Eliot « حفل

كوكتيل Cocktail Party » . الفصل الثاني .

نهاية القرن الماضي ، مكتوب عليه فيما له صلة بهذا الأمر ، أنه يحوى « رفات بوذا المجيد من قبيلة شاكيا » والمعتقد أنه هو القبر الذى شيدته أسرته تحت نصب تذكارى مازال قائماً .

مبدأ الكارما Karma :

فى وقت من الأوقات كان أسلوب العصر هو التشكيك فى وجود زعماء دينيين عظماء أمثال زاردشت والبوذا والمسيح . ولاشك أن التاريخ ربما صار أقل حيرة لو تقبلنا وجهة النظر هذه ، بيد أن كل الأدلة توحى بأن مثل هؤلاء الناس كان لهم وجود بالفعل ، وأن ما هو صعب تفسيره ليست حقيقتهم التاريخية بل كيف أن تعاليمهم فى تعارضها ، كما هو الواقع ، لغرائز أساسية معينة للجنس البشرى ، كان لها مثل هذا التأثير الطويل الأمد على العقل الإنسانى . ومن الصعب أن نتفهم العقلية الغربية فكر «جوتاما بوذا» ، ويتضح ذلك فى أمرين : إذ إن جانباً من هذا الفكر يكاد يكون بعيداً بعدد كله عن إدراك الغرب له ، فى حين أن ذلك الجانب الذى يمكن أن يفهمه المفكرون الغربيون لا يزال يُساء فهمه . وفى الوقت الذى كان يرتاب فيه البوذا فى «الميتافيزيقيات» بالقدر الذى كان يرتاب «سقراط» فيها ، وكان يعارض التأمل عديم الجدوى فى أصل العالم ، كان ينادى بوجهات نظر مؤكدة عن علم نظام الكون ، أو الطريقة التى كانت الحياة فى الكون تعبر بها عن نفسها . وكانت هذه النظرية البوذية عن النظام الكونى Cosmos تختلف قليلاً فى أساسها عن تلك التى كان مسلماً بها فى الهند منذ أقدم العصور ، وهذه نقطة سبق أن وجهنا إليها الأنظار . ولم يشر البوذا ، ولا مرة واحدة ، أو فى الواقع لم بشر أى «جيني» آخر ، إلى نشأة أو صاحب هذه النظرية السلوكية غير العادية ، وهى نظرية أكثر شمولاً من أية نظرية سبق وضعها . لقد قبلها فحسب كحقيقة لا تقبل أى نقاش (١٥) .

وقد يبدو أنه ليس هناك من علة لماذا لا ينبغى للتجسد أو التناسخ أن يستصوب نفسه كعقيدة للعقلية الغربية . ومن بين النظريات غير المبرهن عليها أو التى لا يمكن البرهنة عليها ، نظريات أخلاقية ، فهى لاتعد أكثرها براعة فحسب ، بل أكثرها منطقية . والرجل الغربى «العملى» مع إحساسه القوى بالثواب والعقاب قد يتقبل الفكرة بروح أكثر حماسة من

(١٥) ولا أن يثار جدل حولها ، وقد وضعها البوذا ضمن أربعة «أمور مسلم بها» Kammavipako in Pali

الشرق ، مع إحساسه القوي بالقدرية^(١٧) Fatality (وهو مبدأ مختلف جداً) لِمَ لم يفعل ذلك ، اللهم إلا في حالات فردية جداً^(١٧) ؟ إن رأى الكاتب العصري هو أن الفكرة لم تجد من ينادى بها قط وبمعنى آخر ، يبدو معقولاً الاعتقاد بأن مبدأ تناسخ الأرواح كان مدركاً ونادى به «جينا» في الشرق مبكراً عن أى من المبادئ التى وصلتنا تسجيلاتها ، وربما كان مبكراً حتى عن «الآلهة» أنفسهم ، لأن الأخيرين ، كما كان البوذا حريصاً على أن يؤكد ، كانوا خاضعين تماماً لقانونه بقدر خضوع الناس والحيوانات له^(١٨) . إذن ، فقد يستمد مبدأ ما جانباً كبيراً من بواعثه ، وبحقق الكثير من تأثيره ، من حقيقة أنه يتمشى تمشياً مضاداً بصورة مباشرة مع الغرائز المزاجية للحاضرين . وفكرة القدرية التى تمثل أقصى انتقال من وجهة النظر العادلة والمنطقية للكون ، تحتاج لأن تصححها نظرية مغايرة و«الجينا» أو النهى يسد للناس ما بها من نقص ، ومن ثم فإن العقيدة الشرقية التى حققت أقل نجاح في الشرق هى المسيحية ، بعدم اكتراثها بنظرية التناسخ^(١٩) ، وقد يكون نجاحها العظيم في الغرب مرده إلى الاصرار على مظاهر سلوكية كانت ولا تزال في حاجة إلى إعادة تأكيد مستمر من أجل حضارة عرضة دائماً لنجاح مادي .

وإذا كان البوذا في رضاه عن أنه قد ولد في الدنيا ، كان يؤجل عن طيب خاطر خلاصه الشخصى ، فلا يتضمن هذا أنه كان شخصاً كاملاً كيسوع المسيح ، الذى ترك السماء بقصد أن يفندى البشرية^(٢٠) . لقد تحمل البوذا شخصياً كل عمليات التناسخ ، وقد استغرق هذا زمناً . إن ما جعل البوذا «متنورا» عن كل من سبقوه من دعاة المذاهب هو أنه كان في إمكانه أن يتذكر كل أوجه الحياة التى مر بها إذ أن كل ما كان يعرفه الإنسان غير المتنور هو أن وجوده

(١٦) كانت القدرية الشرقية تحق أحياناً المظهر الأخلاقى للكارما ، قارن ذلك بما جاء في فيشتو بورانا Vishnu Purana : «لا المولد ولا التعليم ولا السلوك ولا الشخصية ولا أى علاقة بين العلاقات تفيد الإنسان في هذه الحياة ، وتأثيرات الكارما على شخص من الأشخاص والندم الذى أحس به في زمن سابق ، تتمر مثلًا تشر شجرة من زمن مختلف في زمن تال هاء . هذا صحيح ولكن الجهود في الوجود المقبل ينبغى احتمالاً أن تتمر أيضاً بدورها ، وإلا لما تناقص عبء الكارما أبداً .

(١٧) هذا الرأى يبدو غامضاً ، إلى حد ما عند أفلاطون .

(١٨) كان شانكارا Shankara ينادى بوجهة نظر مماثلة ، انظر الفصل السادس من هذا الكتاب .

(١٩) لم تشر الديانات السهوية الثلاثة : اليهودية والمسيحية والإسلام إلى التناسخ ، على الإطلاق وإنما أوضحت أن هناك بعثاً وحساباً يوم القيامة (المترجم) .

(٢٠) هذا زيف وبعد عن الواقع إذ إن المسيح ليس ابنا لله بل بشر كماثر البشر ورسول مثل كافة الرسل ، ولم يقتل فداء للبشرية بل رفعه الله إليه بعد موته (المترجم) .

الراهن ، أياً كانت طبيعته هو نتيجة تدبيره الشخصى فى جملة وجوده السابق ، ولكن سلوكه وقت ذلك وهناك إما إصلاح لميزان قد انقلب بصورة خطيرة أو لايزال يقلقه . وبالرغم من قصر مدة المسعى أو الكسل فىهى قد تسبب تغييرات من نوع بالغ الأهمية ، فالرجل الصالح قد « بتخلص » بنجاح مما له من « كارما » للتسليم بأن ما يحدث بعد ذلك من تجسيد على الأرض غير ضرورى^(٢١) ، فى حين أن الشخص الطالح تماماً قد يكون محظوظاً لأن يسمح له بالبقاء داخل حدود العالم الطبيعى ، ولكن فقط كحشرة خبيثة أو كأحد الزواحف ، لأن عجلة الوجود قد تفلت إما صاعدة إلى سماء من السموات المختلفة ، أو يكون مأملاً إلى جحيم من الـ ١٣٦ جحيماً التى يتحدث عنها علم اللاهوت البوذى المتأخر . والخير المطلق والشر المطلق ، وكلاهما نادر ، وجزاؤهما الخلاص المطلق أو الهلاك المطلق .

إنه لأمر مألوف القول بأن البوذية ينعشها نفور شديد من الحياة لايمحى ولايزول . وهناك عبارات معينة من عبارات «البوذا» وبخاصة فيما جاء بـ «موعظة النار» قد تؤيد بسهولة هذا الرأى . ومما يساعد على التبصر أن الكهنة البوذيين قد تعلموا أن يحفظوا أمام عقولهم صوراً مثل الهيكل العظمى أو جثة فى عملية التحلل : إذ يمثل هذه الطريقة سيقل التفكير فيما له صلة بالمتع الجسدية ، وينتهى الأمر بالتخلص منه نهائياً . وبرغم ذلك ، فإن الواجبات الخاصة المحددة للكهنة والمتسولين لم تكن بالضرورة إجبارية بالنسبة للعلمانيين العاديين . وهناك بعض المتصوفين المسيحيين ، أمثال «سنت كاثرين السيانى St. Catherine of Siena» اعتادوا أن يشتركوا فى صور من «النظام الذاتى» الذى قد يبعث الوصف التجريدى له إلى غثبان النفس ، إذ أن هناك طريقة فعالة جداً «لتجريد المرء من حبه للكائنات المخلوقة» (ولنقتبس عبارة «القديس يوحنا الصليبى St. John of the Cross») وهى التركيز على تلك المظاهر التى تتكشف عندها الحياة على أنها ذروة القبح والحقارة . ومع ذلك ، فلقد كانت المسيحية تفخر دائماً بنفسها بتحررها مما يشين ومن المرض^(٢٢) . وبالمثل ، فإن أعظم جانب جذاب فى البوذية ربما كان موقفها من الجمال الطبيعى . وإذا كان الجسم البشرى يثير النفور فلقد كانت الطبيعة فى مجموعها جميلة ولذلك قد شيدت المعابد البوذية الأولى فى أماكن ذات جمال شعرى . لم تكن تبعد كثيراً ولا هى شديدة القرب من المدينة ، كانت بعيدة عن الضوضاء

(٢١) كان هذا هو الهدف الذى أقره الـ يوجيون Yogi : انظر الفصل السادس فى هذا الكتاب .

(٢٢) الديانات السماوية الثلاث ، اليهودية والمسيحية والاسلام ، فى ذلك سواء (الترجم) .

وعن أماكن الراحة المزدهمة وملائمة للتأمل والتبصر الانفرادى . في مثل هذه المجتمعات كان الإخوة يعيشون « في سعادة تامة ، بلا أعداء في عالم ، على العكس من ذلك ، عدائي » فقد أعلنوا : أن في « الهجة انتعاشا » .

وبدراسة البوذية دراسة متعمقة مستفيضة ، يصبح المرء على علم بأن مايتخلص منه ليس « الجسد » (كما هي الحال ، مثلاً ، مع البيوريتانية المسيحية) بل الفردية individuality التي يعد الجسد رمزاً واضحاً لها . ومن ثم . فإن الاجتذاب إلى أن « تكون وحدك مع الطبيعة » كان أيضاً في أن تكون ، كما جاء في عبارة « شيللى Shelley » . « على وفاق مع الطبيعة at one with nature » ، ولم يعد الفرد في ضياع ولا منعزلاً . يقول الكاهن : « في غابة خضراء ، في كهف تطلق الهواء بين الجبال ، أود أن يسبح جسدي ، وأود أن أسير وحدى في الغابات الشاسعة الجميلة . وفي السماء عندما تدق سحب العواصف صنوجها ، وعندما تملأ سيول المطر طريق الهواء ، وعندما ينسى الكاهن نفسه وهو في غار في الجبل ، ويشغل بالتأمل ، ليس هناك أعظم بهجة من ذلك . وعلى شاطئ النهر المغطى بالأزهار يجلس في تأمل مذهل ويكل تأكيد ليس هناك من بهجة أعظم من ذلك »

والهجة والنشوة الروحية ، وهما بعيدتان عن أن تستبعدا من حياة كل من الكهنة ومن العلمانيين ، يُتطلع إليهما على أنها دلالة على مزاج روحي ممتاز . ولقد أغرى مثل هذا المزاج السائد باتخاذ موقف دقيق تجاه كافة المخلوقات . وكان هجوم « البوذا » على نظام الطقوس نتيجة لهذا الموقف . لقد كان الإحسان أسمى من طقوس التضحية « هناك صورة من صور التضحية أسهل من اللبن والزيت والعلس ، إنها الإحسان فبدلاً من التضحية بالحيوانات ، لدعها حرة طليقة ! دعها تسعى وراء الكلاً والماء والنسمات العليلية » ولاعجب إذا كان البوذيون من بين أول من شيدوا مستشفيات للحيوانات . وكما ورد في الـ « ذامآبادا » : « لو أن شخصاً طوال مائة سنة يضحى شهراً في إثر شهر بألف ، ولو أنه للحظة واحدة فقط أكرم شخصاً نشأت روحه في معرفة حقه ، لكان ذلك الكرم أفضل من تضحية داوم عليها مائة سنة » . وهكذا كان التناقض المزوج لتعاليم « جوتاما » كانت الحياة جميلة وقيحية معاً : من واجب المرء أن يستأصل من نفسه الرغبة في الاستمرار في الوجود ، ولكنه قد يبجل إلى درجة رقة الإحساس ، حياة الأشياء الطبيعية يجب أن يسعى لضمان توقف الميلاد ، ولكن في الوقت نفسه ، يجب أن يتغاضى عن استمرار الولادة للمرة الثانية حتى تحل « كارما » الإنسانية

والحياة ، برغم ما فيها من شقاء ، يجب أن تستمر حتى تتظهر من الخطيئة والأثرة ، ومزاج الكاهن يجب أن يكون نوعاً من فعل الخير الرواقى . وطبقاً لتعاليم المعلم ، فإنه إذا ما أودى كاهن على يد أعدائه لوجب عليه أن يقول لنفسه : «إنهم طيبون ، إنهم طيبون ، فهم على الأقل لم يضربونى » وإذا ما ضربه لوجب عليه أن يقول لنفسه «إنهم طيبون ، إنهم طيبون ، فهم على الأقل لم يقتلوني » ، وفى النهاية لو أنهم أعدوا عدتهم ليقتلوه ، لوجب عليه أن يقول : «إنهم طيبون ، إنهم طيبون ، لأن كل مايفعلونه هو أنهم أنقذوني من هذه الحياة الزائلة بدون تعريض خلاصى للخطر»

لقد وصف عدد من العلماء الادعاء بأن الحياة شر غريزى على أنه فساد أخير لتعاليم البوذا^(٢٣) وباستثناء عدد من الصور المستعملة ، فإن تعاليم البوذا لاتوحى بطبيعة لايسيطر عليها بصورة وبيلة أشنع مظاهر الوجود الطبيعى . وأياً كان مزاج البوذا الشخصى ، فلقد تخلص إلى أبعد حد من المزاج الهستيرى والعصبى ، إذ لعل «مهافيرا» كما يمكن استنتاجه ، كان على العكس من ذلك . وفضلا عن هذا ، فإن فلسفة ما لايمكن أن يغض النظر عنها ، باعتبار أنها سلبية تماماً وميوس منها تماماً ، لو أنها تقدم ، حتى لو كان ذلك زائلا وبشمن مذهب ، بصيصاً من الأمل : ولكن «البوذا» منح القدسية Arahatsip هنا والآن لمن هم على استعداد لأن يُخمدوا نار الرغبة والعاطفة فى قلوبهم .

العربان : آشوكا Ashoka :

بنمو المنهج البوذى وبتطور كنيسة مؤلفة من مجموعة كهنة لم يُقصد بها على الإطلاق أن تشكل هيئة كهنوتية صارت أفكار بوذا الرقيقة الحكيمة قوية فى صورة وصايا ، حتى إنه فى الوقت المناسب ، كشف المبدأ البسيط شقاقا ، بعيداً عن الأرض التى بشر فيها «بوذا» لأول مرة ، استمر حتى اليوم وكان هذا الشقاق بين ما يسمى «بوذية هينايانا Mahayana Buddhism» أو «العربة الصغيرة» و «بوذية ماهايانا Mahayana Buddhism» أو «العربة الكبيرة» ، وهما عبارتان لاتبرهنان فى ذاتهما على تنور تام . أما عن أى من هاتين الصورتين للبوذية تعد أكثر اقتراباً مما بشر به «الشخص المتنور» فن الصعب

(٢٣) قارن ذلك بما جاء فى كتاب . م . هيريانا M. Hiriyana : أسس الفلسفة الهندية The Essentials

تحديده عند هذه المدة الزمنية الغارقة في القدم ، ولكنها تختلفان كل منهما عن الآخر اختلافاً عميقاً ، نظراً لأنهما تختلفان عن نوع آخر من البوذية يعرف باسم « بوذية زين Zen Buddhism » التي ازدهرت بصورة خاصة في اليابان . وتاريخ هذه المدارس المختلفة مفيد تعليمياً ، ولكن على شاكلة كافة تواريخ الكفاح الطائفي ، يمكن أن يكون باعثاً على الاكتئاب .

ولم يكن للبوذية خونة ، وإن كان لها مَنْ شكك فيها وهو الحوارى «سوباذادا Subhadda » ، إذ عندما تلقى نبأ وفاة «المبارك» ، كان متوقفاً أن يقول : «سيكون في استطاعتنا الآن أن نفعل مانشاء ، وما لانرغب فيه ومالن نفعله» هذا خير تلخيص لما حدث . وحتى قبل انشقاق «العربة الصغيرة» و«العربة الكبيرة» الذي كان له أثره في الانقسام الجغرافي العريض للبوذية ، ظهرت مالا يقل عن ثمانى عشرة طائفة مختلفة . ولقد كان من المحتمل بالنسبة لعملية الانشقاق ، وهو أمر محتوم إلى حد ما بالنسبة لكل عقيدة ، أن تنتهى بفوضى شاملة ، لو لم يتحول إلى العقيدة البوذية حاكم من أعظم الحكام في التاريخ القديم وهو «آشوكافارذانا Ashokavardhana» أو «آشوكا Ashoka» ويبدو أنه لا يمكن لأية ديانة أن تعيش دون أن يكون لها بطلها المهاب . وكان موقف آشوكا ، الذى بدأ يحكم الهند بأسرها (فيما عدا أقاليم الجنوب) في سنة ٢٧٣ ق . م . ، من البوذا كموقف قسطنطين Constantine من المسيحية . ومالم تكن ظنوننا خاطئة تماماً ، فلقد كان آشوكا يمثل واحداً من الحكام القلائل في التاريخ الدينى لم يتحول حكمهم المطلق إلى فساد مطلق . وقد تميز آشوكا في بداية حكمه بقسوة تقليدية ، ويبدو أنه قد مرَّ في منتصف حياته ب تجربة نفور من الحياة التي تتعاقب فيها الأبهة والمذابح ، والتي كان لأغراض تتعلق بالهيبية ، مضطراً لأن يجهاها ، ويقول البعض إن الفضل في هذا يرجع لبطولة كاهن بوذى كان قد زج به في جحيم سجنه ، ويقول البعض إن ذلك كان في أعقاب أبناء انتصار من انتصاراته الأكثر دموية ، ذلك النصر الذى أحرزه على الكالينجا The Kalinga الذى قُتل فيه عدة مئات الألوف وشوُّهوا أو صاروا بلا مأوى . وكل ما نعرفه هو أنه قرر فجأة أن يصبح راهباً بوذياً أو يوباساكا Upasaka ، وأنه كرس بقية حياته (وربما أصبح كاهناً بعد ذلك) لحكم شعبه وفقاً للمبادئ البوذية .

إلى أى مدى نجح آشوكا في تحويل البوذية إلى دين رسمى للدولة ، فهذا مالا نستطيع أن

نقره : ولاشك أنه قطع شوطاً طويلاً في أن يفرس في شعبه التعاليم الأخلاقية . وجهودنا العصرية في الدعاية السياسية لا يمكن أن تبارى تلك التي استخدمها آشوكا ، كما أنه لا يحتمل أن تبقى لمثل هذا الأمد الطويل . ولقد أقام في نقط اختيرت اختياراً دقيقاً في أرجاء مملكته ، أقام أعمدة صخرية ضخمة نقش عليها ، وعادة ما كان النقش بلهجة الإقليم ، أساسيات الأخلاق البوذية . ولقد حفرت نقوش مماثلة على أوجه صخرية كثيرة . وكلا النقوش الصخرية وعدد من الأعمدة ربما لاتزال قائمة . وكما هو متوقع ، لم تتناول هذه الكتابات الكثير من الأمور اللاهوتية المجردة (وغريب جداً أنها لم تشر ولو مرة واحدة إلى البوذا بالاسم) بقدر ما تناولته من الأمور القومية أو الآداب الاجتماعية . وفي مجتمع يتهدده خطر الانقسام إلى طوائف غير مسالمة ، تنادى هذه الكتابات جاهدة بتسامح ديني . ويحوى فرمان الصخري Rock Edict رقم ١٢ ، على سبيل المثال ، الفقرة الطريفة التالية : « يجب ألا يقدم المرء تبجيله لطائفته ، أو يحط من قدر طائفة أخرى ، بدون سبب . يجب أن يكون التحقير لأسباب معينة فقط ، لأن طوائف الناس الآخرين كلها تستحق التبجيل لسبب أو لآخر . وبسلوك مثل هذا المسلك ، يمجد المرء من طائفته وفي الوقت نفسه يؤدي خدمة لطوائف الناس الآخرين .. وبتابع سلوك مضاد يضر المرء بطائفته هو نفسه ولا يؤدي خدمة لطوائف الناس الآخرين ... والوفاق يستحق التقدير Concord is Meritorious » . هذه عبارة شخص ، في الوقت الذي يدرك فيه عنف العواطف الدينية إدراكاً تاماً يمنع من أن يكون له باع في الاضطهاد ، يدرك مع ذلك جسامته مسئوليات السماح بالحرية الدينية .

وقد يوحى فرمان موجز إلى حد ما مثل فرمان السابق بأن آشوكا ، برغم تسامحه الديني ، كان يتقصه إيمان شخصي . وقد يكون الافتراض باطلا . وعلى شاكلة أختاتون ، يبدو أن آشوكا كان مهتدياً ورعاً ومخلصاً . وكإداري ، كان أكثر قدرة من المتعبد المثالي للإله آتون . لقد شيد معابد بالألوف كما بدأ بإنشاء مستشفيات بيطرية ، وعقد محفلاً بوذياً ضخماً وأصلح الكنيسة . وبعد أن صير بلاده إنجيلية تماماً ، من أقصاها إلى أقصاها ، بدأ بتنظيم البعثات الأجنبية ، ولقد جاب كهنة آشوكا جل العالم المعروف وقتذاك بالغين أقصى ما بلغوه : اليونان في الغرب ، وبعد وفاته مباشرة حملوا مشعل التنور إلى التبت والصين واليابان حيث تأصلت هناك تأصلاً دائماً .

ولم تكن نقوش آشوكا بوجه عام مقصوداً بها فحسب الحُص على الفضيلة ؛ إذ كثيراً ما كانت تتألف من تقارير عن النتائج التي أمكن تحقيقها. وحتى لو سلمنا بالمبالغة الرسمية ، فإن هذه النتائج يبدو أنها جديرة بالملاحظة ، إذ أن الموظفين لم يعملوا بصبر فحسب ، بل أظهر الناس صفات من الفضائل يجب ألا تترك دون أن تحظى بما تستحقه من تقدير. أما الفرمان الصخري رقم (٥) فلا بد وأنه قد صدر في لحظة من الهدوء والرخاء الفريدين : « والآن فإنه من دواعي الورع الذي يمارسه جلالة الملك المقدس الكريم ، قد أصبحت ترديدات طول الحرب هي ترديدات القانون ... ومثلما لم يحدث قبل ذلك بعدة سنوات ، اليوم ... صار المزيد في الامتناع عن ذبح المخلوقات الحية والامتناع عن قتل الكائنات الحية ومعاملة الأقارب بالحسنى سلوكاً مستحباً عند البراهمانيين ، يلقى أذنا مصغية عند الأب والأم ، يلقى أذنا مصغية عند الكبار » باختصار ، هناك شيء يعالج التنظيم العام والدوق العام .

ولقد كانت السنوات الأخيرة من حكم آشوكا (وقد دام حكمه أربعين سنة) سنوات غموض واضطراب كالسنوات الأخيرة من حكم أختاتون، والفشل والتخلى عن الدين هناك لا بد أنهما كانا سائدين في كل الأزمنة ، ومن المحتمل أن يكون آشوكا قد صمم تصميمياً تاماً على الموازنة الخارجية ، ومن ثم خلط « السلوك المستحب » بالاستقامة الأخلاقية الداخلية . وفضلاً عن هذا ، فإن الحفاظ على الفضيلة العامة في مستوى أسمى ، بشكل واضح ، عن ذلك المستوى السائد في أي مجتمع عادي لا بد وأنه قد تطلب قدراً كبيراً من التنقيب والرقابة يثيران السخط ، ومهما يكن أبسط قدر من المجتمع لا بد وقد تهباً للصبر والاحتمال ، فلقد كانت هناك تأثيرات قوية تعمل ضد الفضيلة التي وضع لها الملك تعليمات . وأهم هذه المؤثرات مؤثرات البراهمانيين الذين كانوا ، على شاكلة كهنة آمون ، ينهزون الفرصة لإعادة توكيد نفوذهم ، وليستأنفوا بصورة غير مقصودة تلك العادات المحظورة مثل تقديم أضحيات الحيوانات . وفي النهاية ، يبدو أن آشوكا قد عزّل ، وخلفه من بعده حفيده ، وبالرغم من أنه قد أختنى من الحياة العامة ، إلا أنه ، على شاكلة الإمبراطور شارل الخامس كرس سنواته الأخيرة للمراسم الدينية .

تأليه البوذا :

برغم أنه منهجه قد هجر ، فلقد استمرت الديانة البوذية ، بعد أن لحقها التعديل إلى حد ما ، في اكتساب أشياع بسرعة لامثيل لها وبمقياس لاشك أنه أعظم مما كان يتوقعه مؤسسها ، لأنه مثلما أن هناك بوذيين «أسطوريين» الأمير الشاب اللامع والرسول المتواضع رسول الرقة والصبر ، فكذلك كان هناك مثلان أعليان بوذيان يتصارعان ، ذلك الذي كان يهدى العالم بأسره إلى القدسية Arahatsip وذلك الذي ينادى بوضع إنجيل ثابت ، ولانقول مرناً ، يكفي لخدمة الإنسانية حتى قدوم البوذا التالى . أما عن أن «جوتاما» يبدو أنه كان يعتبر نظام الطائفة مظهراً دائماً للمجتمع ، بالرغم من أنه ربما هو شخصياً قد سخر من تقاليدنا ، قد أوحى به حقيقة أن هذا البوذا المنتظر يجب أن يكون من طائفة البراهمانية ، وسنعود إلى هذه النقطة مرة أخرى. وبمضى الزمن ، اتخذ التقسيم بين «بوذية المهايانا» و«بوذية الهينايانا» اتخذ طابعاً إقليمياً : فالهينايانا ، وهى عقيدة كانت تسعى للحفاظ على بساطة تعاليم البوذا ، ازدهرت لبعض الوقت في جنوب الهند بما في ذلك سيلان ، في حين أن المهايانا ، وهى أكثر حكمة ، كانت سائدة في الشمال وانتشرت من هناك عن طريق الصين والتبت ومنغوليا إلى اليابان^(٢٤) . وكعقيدة بسيطة ، كانت الهينايانا تبجل البوذا بوصفه معلماً عظيماً وقديساً ، وقد استمرت مجتمعات المعابد في تنظيمها متبعة الخطوط التى أوضحها المعلم ، ومن ثم فلعل المعابد في سيلان حتى اليوم تحافظ أفضل من أى مكان آخر ، على خصائص المجتمعات البوذية الأصلية^(٢٥) . وقد مجدت عقيدة أو عقائد المهايانا من ناحية أخرى ، مجدت البوذا لدرجة أنه صار في النهاية يُنظر إليه كإله ، وكان نتيجة ذلك أن النى الملحد كان مسئولاً ، في حينه ، عن نظام دقيق لعلم اللاهوت والميتافيزيقيات . وفي مؤتمر كنسى كبير عقده حاكم كوشان العظيم المدعو كانيشكا Kanishka (نحو ١٢٠ ب . م) والذي حكم إمبراطورية هندية وأسيوية ضخمة من عاصمته في كابل ، تأسست عقيدة المهايانا مع دقة بالغة وثناء فيما كتب عنها . ومن بين إنجازات المبعوثين : تأليف ثلثمائة ألف سوترات Sutras أو مقالات لاهوتية تكاد تتناول كل

(٢٣) التقسيم تقريبى ، ولقد انتشرت المهايانا بالمثل في : كوريا وفي هاواى أيضاً .

(٢٤) قارن ذلك بمقال عن البوذية Buddhism كبه د. لافاليه بوسان De la Vallée Poussin

(١٩٣٨) في كتاب : تراث الهند The Legacy of India.

مشكلة ملموسة من المحتمل أن يواجهها المؤمن . لقد شكلت البوذية اليوم عقيدة لكنيسة قائمة ، لها قوتها .

هل وضعت « العربية الكبيرة » فقط لكي تكون وسيلة نافعة للحكومة؟ سيكون هناك دائماً مؤرخون من رأيهم أن « تطوير » أو تعديل عقيدة ما يمثل مجانبة للبساطة الأصلية والصدق ، وقد حُطت كقاعدة لأغراض سياسية ، أو كان سببه انجهاها زمنياً للطبيعة البشرية للقنوط وللسمي إلى الإحساس بالراحة في العقيدة . ومع ذلك ، فإن مزيداً من الفحص العميق ، في الوقت الذي يسلم فيه بالفساد والانحطاط ، سير أيضاً بتقدم معين ، ولا يرى شيء غير معقول يلزم العمليتين اللتين تحدتان في وقت واحد : ففي ترابط مع نمو النظام الطقوسي ، عبادة الخلفاء الأثرية ، وعلم اللاهوت البالغ التعقيد ، كانت تسير جنباً إلى جنب نظرة أخلاقية أكثر ميلاً إلى الحرية وأكثر تهديباً . وبدلاً من الدعاية لمبدأ أن القديس أو ال آراهات Arahats وحده دون سواه يمكن أن ينجو ، فتحت « بوذية ماهايانا » طريق الخلاص أمام كل البشر . وأكثر من هذا ، لقد صورت هذا الطريق للخلاص بأسلوب أقل غموضاً وأقل سلبية عما كان مسلماً به . وتوقفت « النيرفانا » عن أن تعني (لو أنها كانت تعني أبداً) فناً مطلقاً ، وصارت موطناً للبركة والسلام ، لا تبلغه عملية التناسخ وهذا التطوير ، برغم ما يصاحبه الكثير من الشعائر الخرافية أو السحرية ، يحمل تشابهاً له دلالاته بما حدث في مصر بعد ثورة أختاتون ، وفي الوقت نفسه بما جمع في « كتاب الموفى » ولعل أطرف تطوير للماهايانا ، مع ذلك . هو مبدأ ال « بوذيساتفاس Bodhisattvas » أعنى مبدأ البوذيين الذين امتنعوا عن دخول « النيرفانا » لكي يعملوا من أجل تأييد التحرر العالمي . ويهدف بتجيل هؤلاء البوذيين المنتظرين ، يهدف أحياناً إلى طمس الاسم « التاريخي » المبجل « للبوذا » وبدلاً من التركيز على بلوغ « النيرفانا » ، كان المؤمن يميل إلى الطموح نحو الوصول إلى حالة من حالتين : إما الولادة للمرة الثانية خلال حياة واحد من البوذيساتفاس أو ، ما هو أكثر طموحاً مع ذلك ، أن يصبح « بوذا » هو نفسه . أما بالنسبة لأحسن وسيلة لتحقيق الهدف الأخير ، فقد اختلف علماء اللاهوت اختلافاً شديداً ، وفي الوقت نفسه كان طبيعياً أن يكون من واجب الناسك أن يسعى مبتهلاً طلباً في معاونة القديسين والآلهة وكافة البوذيين الذين سبق أن عاشوا ومن ثم ، إذا بأفكار « جوتاما » البسيطة وقد أغرقها بمضى الزمن غزو عقيدة وأسطورة . ولا يمكن لأوزيريس ولا ال « فرافاشيس Fravashis » أن يظلا لمدة طويلة في الخلفية .

انتشار البوذية :

هناك مظهر واحد من أكثر المظاهر غير العادية في التاريخ وهو حقيقة أن كثيراً من الديانات العظمى في العالم - وهناك اتفاق بوجه عام على أنها إحدى عشرة في عددها - قد ازدهرت بأقل سرعة في مكان نشأتها الأصلية . وهذا صحيح بصورة خاصة بالنسبة للعقيدة البوذية . واليوم ، نجد أن عدد البوذيين المحترفين في الهند ، عدد لا يعتد به (٢٦) ما السبب في أن مثل هذه الديانة القومية قد فشلت في تثبيت جذورها في البلد الذي احتضنها أصلاً بمثل هذه الحرارة ؟ يمكن الجواب في حقيقة غالباً ما تُنكر أو غالباً ما يُقلل من تقديرها . فالبوذية لم تطرد الديانة التي سبقتها وإنما عن طريق تراخيها وتسامحها هي ذاتها ، بقيت العقيدة الهندوسية واستطاعت أخيراً أن تمجج المبدأ الأحدث والأكثر إحكاماً ، لأنه بقدر ما جمعت البوذية من خرافات وطورت ما وضع من علم اللاهوت بل ما غمض ، اقتربت بذلك من أن تكون عقيدة شعبية كالهندوسية التي تتمتع دائماً بشعبيتها كعقيدة ، بالرغم من موهبتها الطبيعية العقلية ، حتى صار البوذا نفسه في النهاية يعد ضمن آلهة البانثيون الهندوسية . وثانياً ، نظراً لريبة البوذا في التضحية وفي الطقوس وفي الاحتفالات الدينية ، باشر السانغا Sangha أو الإخوان البوذيون ، القليل إن وجد ، من الواجبات التي كانت ملقاة بطبيعة الحال على كاهل الكهنة : وبصورة خاصة إقامة الحفلات التي لها علاقة بالميلاد والزواج والموت وإنجاز كثير من المهام الدينية والقومية الأخرى . ولقد استمرت هذه الوظائف يزاؤها البراهمانيون ، كإجراء عادي ، وبدون هذه الطائفة التي تضم أشخاصاً محترمين كما تضم أحياناً أشخاصاً فاسقين ، تفقد الحياة الاجتماعية في « هندوستان » استمرارها . وبالرغم من أن البوذا كان يعارض ضمناً البراهمانيين فإنه يبدو أنه لم يقبل فحسب وضعهم الكهنوتي بل كان يسلم به كمظهر دائم من مظاهر الحياة الاجتماعية . ولقد ظل البوذا عديم الاكتراث أكثر منه عدواً للكيان الطائفي للمجتمع .

وبرغم أن البراهمانية كانت تباشر مثل هذا النفوذ القوي على المجتمع الهندي ، فلقد تمتع « السانغا » بفترة من الهيبة الضخمة . وفي الواقع ، جاء وقت شهد ما لهذه العقيدة من جذب له مثل هذا التأثير على شباب ماجادا Magadha (شمال شرق الهند) حتى بدا أن المجتمع

على وشك أن ينقرض نتيجة المغالاة في العزوف عن الزواج Celibacy. وهناك عامل آخر من عوامل الضعف وهو السلمية التامة للمبدأ البوذي : لأنه في الوقت الذي قد لا يكون فيه التفاخر بالقوة محطماً بالضرورة لمعتقدات غير قوية ، فإنه غالباً ما يمكنه أن يمارس تأثيراً حيث تكون الدعوة له ومن ثم ، فقد جاء طرد البوذية من الهند نتيجة لوصول أناس تلمهم عقيدة ذات حماسة عسكرية ، أعنى المسلمين . ولقد رسخ الإسلام أقدامه في الهند حتى اليوم ، ولو أنه لم ينجح مثلاً نجحت البوذية في إقصاء ذلك التكتل غير العادي للمعتقدات الميتافيزيقية العظيمة ، والأساطير والحزافات والتداعات التي تؤلف العقيدة الهندوسية التاريخية .

وتاريخ البوذية من انقراضها في الهند حتى الوقت الراهن قد يسترعى أنظار القارئ الغربي على أنه عملية متعبة ومحيرة تكاد تتوقف فيها العقيدة الصحيحة للبوذا عن أن تكون مدركة . ولاشك أن بوذية آسيا ، بما في ذلك اليابان ، عقيدة توضح قدراً كبيراً من التنوع الداخلى . وفي استعراضنا لتاريخ المسيحية في الغرب فإنه لاشك أن أى عالم من علماء الشرق سيلاقى انطبعا مماثلاً لوجود صراع عنيف ، ونلاحظ تفاوتاً واضحاً في العقيدة والممارسة ، وخرافة الطبقات . على أن أتى بوذية ربما تلك التي توجد في بورما ، وأقلها نقاء في اليابان ، ولكن اختبار العقيدة يكون في النهاية في حيوات الأفراد . وتتضمن « بوذية زين Zen Buddhism » بعض أجزاء ذات جمال عظيم وبصيرة روحية :

دع غيرى يذموننى ، لتتاح لى فرصة اكساب موهبة ،
لأنهم هم فى الواقع أصدقائى المخلصون ،
وعندما أدلل أو أهان ، لا عداوة ولا محاباة ،
تثير فى كوامنى قوة الحب والضعفة التى تولد مما لم يولد

(من أنشودة التنور ، نظم بوكا ديشى : Yoka Daishi)

ومع ذلك ، فلعل أطرف صورة من صور البوذية المتأخرة هى تلك التى بدأت ترعرع في الثبت من القرن السابع الميلادى . ولما صار الفاتح : «سترونج تسان جامبو Strong-tsan Gampo » (٥٠٠٦٢٩) سيداً لهذا البلد الذى يصعب دخوله ، أقام عاصمته في لhasa ، وبجكمة نادرة بدأ يث في شعبه المبادئ البوذية بمساعدة المبشرين الذين استدعاهم بصفة خاصة من الهند ، أمثال القديس «بادما سامبهافا

«Padma Sambhava» وبسرعة تأصلت العقيدة^(٢٧). ولقد أمسكت شخصيتان مسئولتان قويتان ، هما : دلاى لاما Dalai Lama (الكاهن الأعظم) وتاشى لاما Tashi Lama ، أمسكنا بزمام الأمور في البلاد وفرضتا فيها حكماً دينياً Theocratic Rule . وحتى اليوم يعتبر أولهما خليفة المعتقد الأول : التجسيد الثاني « للبوديساتفا » في حين أنه من المعتقد أن الثاني خليفة المعتقد الثاني : تجسيد Avatar للبوذا . ويُفسَّر علم لاهوت اللاما في سلسلة ضخمة من الكتب المقدسة . والمعتقد أن المؤمنين يكتسبون موهبة بأداء دقيق للطقوس بما في ذلك العكوف على الصلاة وما يسمى بـ « أشجار القانون Trees of the Law » وهى قوائم خشبية طويلة مزينة بالأعلام . وبالرغم من هذا المظهر الساحر فإن حكمة اللاما تحوى تعاليم تعبد إلى الأذهان حكمة الصين أو « كتاب الأمثال Book of Proverbs » :

يعلن الشخص الأحمق عن خصائصه ،
أما العاقل فيحتفظ بها سراً في قرارة نفسه
يظفو القش على سطح الماء ،
ولكن الجوهرة الثمينة الموضوعة عليه تسقط .
أو في سمو أكثر :

الطريق واحد للجميع ،
والوسيلة للوصول إلى الهدف لا بد وأن تختلف باختلاف الحجيج .
إنك لن تجعل أحاسيسك ساحة لعب لعقلك ،
هل لاءمت بين وجودك وألم الإنسانية العظيم ، ياطالب النور؟
لأنك يجب أن تعلم أن الباقي لا يعرف التغيير والتبديل .

ونحن إذ نكتب ، فإن البلد الذى اشتهر وعرف بحفاظه على نظامه الاجتماعى ونظامه الدينى الكهنوتى خلال فترة تربو على ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، مفتحة أبوابه للتأثير الأجنبى ولبدأ مغاير ، له نتائج لانستطيع نحن في الغرب أن نتنبأ بها في الوقت الراهن .

(٢٧) لعلها قد بدأت في اجتياز التبت أكثر تبيكراً عن ذلك .